المقرر المعتمد لمادة

التفسير الإسلامي للسلوك

PSY 454

الفصل الدراسي الثاني ١٤٣٤هـ

معتمد من دكتور المادة

من إعداد إخوانكم

HI4ROSE & BASEL

المنهج المعتمد مادة

التفسير الاسلامي للسلوك

psy 454

الفصل الدراسي الثاني

١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م

حسب تحديد الدكتور في الدورة التأهيلية

إعداد ومتابعة اخوانكم

Basel & hi4rose

أسئلة ونقاط	رقم الصفحة
هل يمكن أن يسيطر الإنسان على الدوافع ؟ نعم	٥٥
هل الحواس تعمل والجنين في بطن أمه؟ لا تعمل إلا بعد ولادته	١٢٥
هل القران تحدث عن جميع الحواس؟ لا تحدث فقط عن السمع والبصر	١٢٣
أهم حاسة هي السمع وذلك حسب ترتيب ذكرها في القران الكريم	١٢٦
الحواس مشتركة بين الإنسان والحيوان	
الحواس الجلدية هي علم وظائف الأعضاء	١٢٨
هل يوجد صراع بين الدوافع؟ نعم يوجد	٥٣
الانتباه هو التركيز	١٨١
هل تناول القران الكريم الصراع النفسي للإنسان؟ نعم	٢٢٧
هل تحدث القران الكريم عن الفروق الفردية لدى الناس؟ نعم	٢٥١

الفصل الأول

دوافع السلوك في القرآن

الدوافع هي القوى المحرِّكة التي تبعث النشاط في الكائن الحيّ وتبدئ السلوك وتوجهه نحو هدف أو أهداف معيّنة . والدوافع تؤدي وظائف ضرورية وهامة للكائن الحي ، فهي التي تدفعه إلى القيام بإشباع حاجاته الأساسية الضرورية لحياته وبقائه ، كما تدفعه إلى القيام بكثير من الأفعال الأخرى الهامة والمفيدة له في توافقه .

ويصنِّف علماء النفس المحدثون الدوافع إلى قسمين رئيسيين هما :

أولاً : الدوافع الفسيولوجية[1] ، وهي الدوافع الفطرية التي ترتبط بحاجات البدن الفسيولوجية وما يحدث في أنسجة البدن من نقص أو اختلال الاتزان . وهي تقوم بتوجيه سلوك الفرد إلى الأهداف التي تشبع حاجات بدنه الفسيولوجية ، أو تسدّ النقص الذي يطرأ على أنسجة البدن وتعيدها إلى حالتها السابقة من الاتزان .

ثانياً : دوافع نفسية وروحية[2] ، وهي دوافع تتعلق بحاجات الإنسان النفسية والروحية .

الدوافع الفسيولوجية

لقد اقتضت حكمة الله سبحانه وتعالى الذي منح نعمة الوجود لكل مخلوق أن يودع في مخلوقاته خصائصها وصفاتها الخاصة التي تؤهلها لأداء الوظائف التي خلقها الله تعالى لها .

---

(١) وتسمى أيضاً بالدوافع الأولية .

(٢) وتسمى أيضاً دوافع ثانوية ، أو دوافع نفسية ـ اجتماعية ، أو دوافع اجتماعية .

« رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ »[1]

« سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ »[2]

ومن بين الخصائص الهامة التي أودعها الله تعالى في طبيعة تكوين الحيوان والإنسان الدوافع الفسيولوجية . والدوافع الفسيولوجية قسمان : أحدهما ضروري لبقاء الفرد ، والآخر ضروري لبقاء النوع .

وتؤدي الوظائف الفسيولوجية وظيفة بيولوجية هامة للحيوان والإنسان ، فهي تقوم بتلبية حاجات البدن ، وتسدّ كل ما يطرأ عليه من نقص عضوي أو كيميائي ، وتقاوم كل ما يطرأ عليه من خلل أو اضطراب أو فقدان الاتزان . وهي تعمل دائماً على الاحتفاظ للبدن بقدر معينّ من الاتزان الحيوي اللازم لحفظ ذاته وبقائه . فإذا اختل الاتزان في البدن بأن قلّ الغذاء في الدم ، مثلاً ، أو قلّ الماء في أنسجة البدن ، أو زادت حرارة البدن أو برودته عن حد معين ، أو زاد التعب عن حد معين انبعثت في البدن فوراً دوافع معينة تدفع الفرد إلى القيام بالنشاط اللازم لإعادة البدن إلى حالته السابقة من الاتزان . وقد بينت الدراسات الفسيولوجية الحديثة[3] وجود ميل طبيعي في بدن الإنسان والحيوان إلى الاحتفاظ بدرجة ثابتة من الاتزان ، بحيث إذا اختلّ هذا الأتزان انبعث دافع إلى القيام بنشاط توافقي لإعادة البدن إلى حالتة السابقة من الاتزان . وقد يتم هذا النشاط التوافقي على أساس فسيولوجي بحت لا إرادة للإنسان فيه ، كما يحدث مثلاً حينما يتصبّب البدن عرقاً في درجات الحرارة العالية مما يؤدي إلى خفض درجة حرارة البدن نتيجة لتبخر العرق . أو كما يحدث حينما تدمع العين إذا دخل جسم غريب تحت الجفن ، وتؤدي الدموع إلى التخلص من هذا الجسم الغريب . وقد يتم هذا النشاط التوافقي بقيام الفرد بنشاط إرادى معين كأن يقوم مثلاً بتناول الغذاء في حالة الجوع ، أو بشرب الماء في حالة الظمأ .

---

(١) طه : ٥٠ .

(٢) الأعلى : ١ – ٣ .

(٣) قام بها وولتر كانون الفسيولوجي الأمريكي ونشرها في كتاب بعنوان « حكمة البدن » .
Cannon, W.B. *The Wisdom of the Body*. New York: Norton, 1932.

وفكرة الاتزان الحيوي هذه التي اكتشفها العلماء حديثاً قد ذكرها القرآن الكريم من قبل منذ أربعة عشر قرناً ، وذلك في قوله تعالى :

« وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ »(١)

« .. وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ »(٢)

« الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ »(٣)

فالإنسان – وكذلك الحيوان – مخلوق بطريقة معينة متقنة مقدَّرة تقديراً بحيث يكون على قدر معين من الاتزان . فإذا اختل هذا الاتزان تنبعث الدوافع الفسيولوجية التي تدفع الإنسان – وكذلك الحيوان – إلى القيام بأنواع النشاط التوافقي اللازم لإعادة البدن إلى حالته السابقة من الاتزان .

وقد أشار القرآن إلى هذه الدوافع الفسيولوجية الهامة ، وسوف نتناول فيما يلي ما جاء في القرآن متعلقاً بهذه الدوافع .

أولاً – دوافع حفظ الذات :

ذكر الله سبحانه وتعالى في بعض آيات القرآن أهم الدوافع الفسيولوجية

---

(١) الحجر : ١٩ . « من كل شيء موزون » أي « وزن بميزان الحكمة ، وقدِّر بمقدار ما تقتضيه لا تصلح فيه زيادة ولا نقصان » ، تفسير النسفي ، جـ ٢ ، ص ٢٧ ، أي « مقدَّر بمقدار معيَّن حسبما تقتضيه الحكمة » حسين محمد مخلوف : صفوة البيان لمعاني القرآن ، القاهرة : دار الكتاب العربي ، ١٩٥٦ ، ص ٤٥ .

(٢) الرعد : ٨ . « أي بقدر واحد لا يتجاوزه » ، تفسير الجلالين ، ص ٢٠٦ ، « بقدر واحد لا يجاوزه ولا ينقص عنه » ، تفسير النسفي ، جـ ٢ ، ص ٢٤٣ ، « أي كل شيء عنده تعالى بقَدَر وحدّ لا يجاوزه ولا ينقص عنه » ، حسين محمد مخلوف : صفوة البيان لمعاني القرآن ، مرجع سابق ، ص ٤٠٠ .

(٣) الانفطار : ٧ . « فعدلك أي جعلك معتدلاً سويَّ الخلق » ، تفسير القرطبي ، جـ ٩ ، ص ٢٤٦ . ويفهم من معنى الاعتدال والسواء في خلق الإنسان أنه يتضمن الاعتدال والسواء بصورة شاملة لجميع تكوين الإنسان سواء في هيئته الخارجية أو في تكوينه الداخلي ووظائفه المختلفة ، أي أنه يتضمن أيضاً مفهوم الاتزان الحيوي اللازم لحفظ ذات الإنسان وبقائه .

التي تقوم بحفظ الذات وبقاء الفرد مثل الجوع ، والعطش ، والتعب ، والحرارة والبرودة ، والألم ، والتنفس .

لقد خاطب الله تعالى آدم عليه السلام وهو في الجنة مذكراً له ما هو فيه من نعيم حيث لا يؤذيه الشعور بالجوع أو العطش ، وحيث لا يعري فيخدش حياؤه وتؤذيه تقلبات الجو ، وحيث لا يشعر بحرارة الشمس حيث لا توجد شمس في الجنة ، ومحذراً له من الوقوع في شرك الشيطان الذي يريد أن يخرجه من الجنة ليهبط إلى حياة الأرض التي سيشقى فيها هو وأبناؤه بالسعي والعمل المتواصل بالصيد والحرث والزرع لإشباع دافع الجوع ، وحفر الآبار والضرب في الأرض للوصول إلى مجاري الأنهار لإشباع دافع العطش ، وصنع الملابس لاتقاء العري الذي يعرضه لتقلبات الجو ، والالتجاء إلى ظلال الأشجار والكهوف وبناء المساكن لاتقاء حرارة الشمس وبرودة الليل . قال تعالى :

« فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ۝ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ۝ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ۝ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ »[1]

في هذه الآيات إشارة إلى ثلاثة دوافع هامة من دوافع حفظ الذات وهي دوافع الجوع والعطش وتجنب الحرارة (وكذلك البرودة) المفرطة . كما تشير هذه الآيات أيضاً إلى دافع حب البقاء ودافع التملك . وتعمل دوافع حفظ الذات في خدمة دافع حب البقاء ، فهي بإشباعها حاجات البدن الفسيولوجية إنما تعمل على بقاء الفرد واستمرار حياته . أما دافع التملك فهو من الدوافع النفسية والروحية التي سنتناولها فيما بعد . وقد كان دافع حب البقاء ودافع التملك مدخل الشيطان إلى نفس آدم فوسوس له : « هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى » ، فنسي آدم ما حذره الله تعالى منه وعصى أمر ربه فأكل من الشجرة .

---

(١) طه : ١١٧ – ١٢٠ .

ونجد في الآيات التالية من سورة النحل إشارة إلى بعض دوافع حفظ الذات وهي : الحرارة والبرودة ، والتعب ، والألم . قال تعالى :

« وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ ۝ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ »[1]

ففي كهوف الجبال والخيام والبيوت يجد الإنسان سكناً يقي فيه نفسه من أذى الحيوانات الضارية ، وشر الأعداء ، وتقلبات الجو من حرارة وبرودة ، كما يجد فيها الراحة والمكان الآمن الذي يستطيع فيه النوم بعد عناء العمل المتواصل أثناء النهار . كما أن في ظلال الأشجار والتلال والجبال يجد الإنسان ملجأً يقيه حرارة الشمس ، وبالملابس التي يصنعها الإنسان يقي نفسه شدة الحرارة والبرودة ، وبالدروع التي يصنعها من الحديد يقي نفسه أثناء الحروب من أذى الأعداء وآلام الجروح .

ومما يشير إلى ان دوافع الجوع والعطش والتعب من الدوافع التي لا يستطيع أن يتحملها الإنسان عادة مدة طويلة لما تسببه له من ألم ، وما تلحقه به من ضرر ، ما وعد الله تعالى به المؤمنين من ثواب لتحملهم الجوع والظمأ والتعب في سبيل الله . قال تعالى :

« مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ

---

(١) النحل : ٨٠ ، ٨١ .

عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ »[1]

ودوافع حفظ الذات موجودة لدى كل من الحيوان والإنسان . وتشير الآية التالية من سورة النمل إلى دوافع حفظ الذات عند النمل مما يجعلها تتجنب ما يؤذيها ويلحق بها الضرر ويصيبها بالهلاك والدمار .

« وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ۝ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ »[2]

في هاتين الآيتين نجد إشارة واضحة إلى دوافع حفظ الذات عند النمل مما دفع نملة منها ، لعلها رئيسة مجتمع النمل أو حارسته ، إلى تنبيه بقية النمل إلى الخطر المحدق بهم لكي يدخلوا مساكنهم لاتقاء هذا الخطر .

وتشير بعض آيات القرآن إلى الأهمية الخاصة لكل من دافع الجوع وانفعال الخوف في حياة الإنسان . فكل من الجوع والخوف يلعب دوراً هاماً في حياة الإنسان . فالإنسان عادة يجد كثيراً من العناء في سبيل الحصول على لقمة العيش لنفسه وزوجه وأولاده . كما أن الخوف[3] من الموت ، أو من المستقبل المجهول ، أو من الأعداء ، أو من غير ذلك من مصائب الدهر ، كثيراً ما يكون سبباً في شقاء الإنسان . ولذلك فقد ذكرت بعض آيات القرآن كلاً من الجوع والخوف كعاملين لهما أثرهما الخطير في حياة الإنسان . قال تعالى :

« وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ »[4]

---

(١) التوبة : ١٢٠ .

(٢) النمل : ١٧ ، ١٨ .

(٣) سنتناول فيما بعد الخوف في شيء من التفصيل في الفصل الثاني الخاص بالانفعالات .

(٤) البقرة : ١٥٥ .

« وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ »[1]

« فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ »[2]

ومما يبين أيضاً أهمية إشباع دافع الجوع في حياة الإنسان ، وكذلك أهمية وقاية جسمه من الأذى الذي قد ينشأ عن تقلبات الجو من حرارة وبرودة أن الله سبحانه وتعالى جعل كفارة اللغو في الأيمان إطعام عشرة مساكين أو كسوتهم .

« لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ »[3]

وأشار القرآن إلى دافع الحرارة والبرودة في قوله تعالى :

« وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ۝ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا »[4]

فليس فى الجنة شمس تجعل الإنسان يشعر بالحرارة ، كما أنه ليست فيها برودة شديدة .

---

(١) النحل : ١١٢ .

(٢) قريش : ٣ ، ٤ .

(٣) المائدة : ٨٩ .

(٤) الإنسان : ١٢ ، ١٣ .

وأشار القرآن ايضاً إلى دافع التعب . قال تعالى عن لسان المؤمنين في الجنة .

« وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ۝ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ »(١)

في الجنة دار الإقامة الدائمة لا يشعر الإنسان بالتعب والإعياء لعدم التكليف . وقال تعالى أيضاً في وصف أهل الجنة :

« لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ »(٢)

أما في الحياة الدنيا حيث يشقى الإنسان في سبيل الحصول على رزقه ، وفي القيام بواجباته ومسؤولياته المختلفة فإنه يشعر بالتعب والإعياء ويحتاج إلى الراحة والنوم لكي يستعيد نشاطه وحيويته ويصبح قادراً على الاستمرار في القيام بمسؤولياته المعيشية .

« وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ »(٣)

فمن آيات الله أن ينام الإنسان سواء بالليل أو بالنهار لإراحة بدنه من عناء العمل أثناء النهار ، وطلبه للرزق من فضل الله الواسع ، وقيامه بمسؤولياته المعيشية المختلفة . وفي هذا المعنى قال الله تعالى أيضاً :

« هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ »(٤)

---

(١) فاطر : ٣٤ ، ٣٥ ، لغوب : تعب وإعياء .

(٢) الحجر : ٤٨ .

(٣) الروم : ٢٣ .

(٤) يونس : ٦٧ .

« ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ »[1]

« أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ »[2]

« وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا »[3]

« وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا »[4]

وتشير هذه الآيات إلى أن الله سبحانه وتعالى جعل الليل ساتراً بسواده ليستريح فيه الناس ويسكنوا وينام بعد عناء العمل وكثرة الحركة والنشاط أثناء النهار . وجعل النهار مضيئاً ليتمكنوا من السعي في الأرض طلباً للرزق وللقيام بمتطلبات معايشهم . وقال تعالى أيضاً عن دافع التعب وطلب الراحة :

« وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ »[5]

« وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ »[6]

إن التعب دافع هام يدفع الإنسان إلى الراحة والنوم بعد عناء العمل أثناء النهار فتسترد خلايا بدنه نشاطها وحيويتها ، ويستيقظ الإنسان بعد النوم قوياً

---

(١) غافر : ٦١ .
(٢) النمل : ٨٦ .
(٣) النبأ : ٩ — ١١ .
(٤) الفرقان : ٤٧ .
(٥) الانعام : ٦٠ .
(٦) القصص : ٧٣ .

نشيطاً قادراً على مواصلة عمله في حيوية ونشاط . ويؤدي النوم أيضاً إلى التخلص من التوتر البدني الذي ينشأ عن المخاوف التي تنتاب الإنسان ، وعن كثير من المشكلات والصعاب التي يتعرض لها أثناء حياته اليومية . يتضح ذلك مما جاء في القرآن في وصف حال المسلمين أثناء موقعة بدر حينما استولى على بعضهم الخوف . قال تعالى :

« إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ »[1]

فقد أدى نعاسهم إلى إزالة خوفهم مما أعاد إليهم حالة الأمن والاطمئنان . ويشير الله تعالى إلى أهمية النوم في حياة الإنسان بقوله تعالى :

« قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ »[2]

فإذا كان النهار مستمراً لا نهاية له ، ولا يوجد هناك ليل يسكن فيه الإنسان ليرتاح من التعب وينام ، فهل يستطيع الإنسان أن يعيش حياة هادئة خالية من العناء والشقاء . إن في ذلك دليلاً على فضل الله تعالى ونعمته على الإنسان ، بأن جعل النهار والليل متعاقبين على الدوام ، وبأن أودع في الإنسان دافع التعب الذي يدفعه إلى النوم والراحة ليسترد نشاطه وحيويته .

والألم من الدوافع الفسيولوجية الفطرية ، وهو يدفع الإنسان إلى تجنب ما يؤذيه ويؤلمه . وقد سبق أن أشرنا إلى دافع الألم فى الآية التى ذكرناها من قبل من سورة النحل (الآية رقم ٨١)[3] . ومما يشير أيضًا إلى أن الألم دافع قوي يدفع الناس إلى تجنب كل ما يؤلمهم ما جاء في كثير من آيات القرآن من تحذير الكفار والمنافقين مما يمكن أن يلحق بهم من ألم العذاب سواء في الدنيا

---

(١) الأنفال : ١١ .

(٢) القصص : ٧٢ .

(٣) انظر ص ٣١ .

أو في الآخرة إن هم لم يتوبوا إلى الله ويؤمنوا به . ولو لم يكن الألم دافعاً قوياً وفطرياً وعاماً بين جميع البشر لما استعان الله تعالى به في تخويف الناس وتحذيرهم مما يمكن أن يلحق بهم من عذاب أليم إذا كفروا بالله تعالى ولم يؤمنوا برسالة محمد عليه الصلاة والسلام . وقد وردت في القرآن آيات كثيرة تحذر الكافرين من عذاب جهنم ، نذكر فيما يلي أمثلة منها :

« إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَـٰرِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ »(١)

« .. فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْاْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ »(٢)

« يَـٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ »(٣)

ودافع التنفس من الدوافع الفسيولوجية الضرورية للحياة . فالإنسان – وكذلك الحيوان – يحتاج إلى تنفس الأكسيجين ليعيش . فإذا قل الأكسيجين شعر الإنسان بدافع قوى يدفعه إلى استنشاق الأكسيجين . فإذا انعدم الأكسيجين نهائياً مات الإنسان . وقد أشار الله تعالى إلى أهمية التنفس فى حياة الإنسان فى قوله تعالى :

« وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ۝ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ۝ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ »(٤)

---

(١) المائدة : ٣٦ ، ٣٧ .

(٢) التوبة : ٧٤ .

(٣) الاحقاف : ٣١ .

(٤) يس : ٤١ – ٤٣ .

«.. وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ..»[1]

وتتضح أهمية دافع التنفس كدافع فسيولوجي فطري يؤدي وظيفة هامة في حفظ الذات وبقائها ما يشعر به الإنسان من خوف شديد إذا ما أحاط به خطر يهدده بالغرق . وقد أشار الله تعالى إلى حالة الذعر التي تصيب الإنسان إذا كان في الفلك في عرض البحر وهبت عليه عاصفة شديدة ، وأحاط به الموج من كل مكان ، وشعر بخطر الموت غرقاً .

«هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ»[2]

ثانياً – دافعا بقاء النوع :

وكما اقتضت حكمة الله سبحانه وتعالى أن يوجد في طبيعة تكوين الإنسان والحيوان دوافع فسيولوجية فطرية تدفعهما إلى أنواع السلوك الضرورية لحفظ الذات ، فقد اقتضت حكمته كذلك أن يوجد في طبيعة تكوينهما دافعين فسيولوجيين فطريين يدفعانهما إلى القيام بنوعين هامين من السلوك يتوقف عليهما بقاء النوع . هذان الدافعان هما الدافع الجنسي ، ودافع الأمومة .

الدافع الجنسي :

الدافع الجنسي يقوم بوظيفة هامة هي التناسل لبقاء النوع . وعن طريق الدافع الجنسي تتكون الأسرة ، ومن الأسر تتكون المجتمعات والشعوب ، فتعمر الأرض ، وتتعارف الشعوب ، وتزدهر الحضارة ، وتتقدم العلوم والصناعات .

---

(١) العنكبوت : ٤٠ .

(٢) يونس : ٢٢ .

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ » (١)

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا » (٢)

« وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً .. » (٣)

« فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ » (٤)

واقتضت مشيئة الله تعالى أن توجد وظيفة التناسل في النباتات أيضاً . كما اقتضت مشيئته تعالى أن يوجد كل شيء في الكون أزواجاً .

« .. وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ .. » (٥)

« وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ » (٦)

---

(١) الحجرات : ١٣ .

(٢) النساء : ١ .

(٣) النحل : ٧٢ .

(٤) الشورى : ١١ . وفي تفسير ابن كثير : « (يذرؤكم فيه) أي يخلقكم فيه أي في ذلك الخلق على هذه الصفة . لا يزال يذرؤكم فيه ذكوراً وإناثاً خلقاً من بعد خلق وجيلاً بعد جيل » . ج ٤ ، ص ١٠٨ .

(٥) الرعد : ٣ .

(٦) الذاريات : ٤٩ . وقد بينت البحوث الحديثة في علم الطبيعة أن كل ذرة من الذرات التي تتكون منها جميع الأشياء في الكون تتكون من إلكترون وبروتون ، وقد تمكن العلماء من تحليلهما إلى كهارب موجبة وسالبة ، ينجذب كل منها إلى الآخر .

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾(١)

والدافع الجنسي أساس تكوين الأسرة حيث يسكن كل زوج إلى زوجه فيشعر بالراحة والأمن والطمأنينة ، وتنشأ بينهما عواطف المحبة والمودة والرحمة مما يؤدي إلى استمرار الحياة الزوجية في وفاق وتعاون مما يهيئ الجو السليم لتنشئة الأطفال ورعايتهم وتكوين شخصياتهم تكويناً سليماً .

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾(٢)

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا .. ﴾(٣)

دافع الأمومة :

وشاءت حكمة الله سبحانه وتعالى أن يوجد أيضاً في طبيعة تكوين الأم دافعاً فطرياً يهيؤها للقيام برسالتها الهامة في الإنجاب لبقاء النوع . فهي تتحمل مشاق الحمل والولادة عن رضا ، وتقوم بإرضاع الطفل ورعايته والحنو عليه حتى ينمو ويصبح قادراً على العناية بنفسه . وقد أشار القرآن إلى ما تتحمله الأم من عناء في الحمل والولادة .

﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا .. ﴾(٤)

---

(١) يس : ٣٦ . انظر في هذا الصدد أيضاً : محمد قطب : دراسات في النفس الإنسانية . بيروت : دار الشروق ، ١٩٧٩ ، ص ١٩٥ ، ١٩٦ .

(٢) الروم : ٢١ .

(٣) الأعراف : ١٨٩ .

(٤) الأحقاف : ١٥ . « حملته أمه كرها ووضعته كرها » أي على مشقة . « وفصاله » أي فطامه .

« وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ »(١)

ويصف القرآن عواطف الأم وحبها لأولادها ، وشغفها بهم ، وخوفها عليهم ، وحزنها لبعدهم عنها ، وفرحها لقربهم منها ، وذلك أثناء ذكره تعالى لقصة موسى عليه السلام .

« وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَـٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ »(٢)

أي أن فؤادها أصبح خالياً من التفكير في أي شيء ما عدا ابنها . وكادت لفرط خوفها عليه وحزنها لفراقه أن تدل عليه لولا أن ثبَّت الله تعالى قلبها وأنزل السكينة والطمأنينة في نفسها . ولما رُدَّ إليها ابنها ذهب عنها الحزن ، وعادت إليها سعادتها .

« فَرَدَدْنَـٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ .. »(٣)

الدوافع النفسية والروحية

الدوافع النفسية والروحية هي الدوافع التي ترتبط بحاجات الإنسان النفسية والروحية ، وليست لها علاقة مباشرة بحاجات الإنسان الفسيولوجية . ويضم هذا القسم من الدوافع نوعين رئيسيين هما :

١ ـ **الدوافع النفسية** ، وهي ما يطلق عليه علماء النفس المحدثون اسم الدوافع النفسية ـ الاجتماعية ، لأنها تشبع حاجات نفسية للفرد من جهة ، ولأنها تظهر أثناء تنشئة الفرد الاجتماعية ، ونتيجة لتفاعله الاجتماعي مع غيره من الناس ، من جهة

(١) لقمان : ١٤ . الوهن هو الضعف . و« وهنا على وهن » يعني الضعف في الحمل والولادة .
(٢) القصص : ١٠ .
(٣) القصص : ١٣ .

أخرى . ويذهب معظم علماء النفس المحدثين إلى أن الدوافع النفسية هي في الأغلب مكتسبة على أساس دوافعنا الفسيولوجية ؛ أى أنهم يعتبرونها متفرعة أو مشتقة منها نتيجة تفاعلها مع خبرات الفرد وعوامل تنشئته الاجتماعية . وبناء على ذلك ، فهم لا ينكرون وجود عناصر فطرية فيها . بل يذهب بعضهم ، مثل إريك فروم ، إلى القول بأن بعض الدوافع النفسية والتى يسميها فروم الحاجات النفسية مثل الحاجة إلى الانتماء ، والحاجة إلى السمو ، والحاجة إلى هوية ، والحاجة إلى إطار للتوجيه هى حاجات فطرية أساسية فى طبيعة الإنسان ، وهى ليست مكتسبة من المجتمع (١) .

٢ ـ **الدوافع الروحية** ، وهى دوافع ترتبط بالناحية الروحية فى الإنسان ، مثل دافع التديّن ، والتمسك بالتقوى ، وحب الخير والحق والعدل ، وكره الشر والباطل والظلم ، وقد أغفل معظم علماء النفس المحدثين فى دراستهم للدافعية هذا النوع من الدوافع الروحية ، بالرغم من أنها أهم ما يتميز به الإنسان عن الحيوان . وقد فطن أبراهام ماسلو A. Maslow إلى هذا القصور فى دراسة علماء النفس المحدثين للدافعية ؛ فقام باقتراح تصنيف جديد للدوافع يشمل الدوافع الروحية ، فقال بوجود نوعين من الدوافع أو الحاجات على حد تعبير ماسلو : حاجات أساسية ، وحاجات روحية . الحاجات الأساسية تشمل ما يدرسه معظم علماء النفس عن الحاجات الأساسية لدى الإنسان مثل الجوع ، والعطش ، والجنس ، والأمن ، والإنجاز ، وغير ذلك من الدوافع . وتشمل الحاجات الروحية الحاجات المرتبطة بالناحية الروحية فى الإنسان مثل العدل ، والخير ، والجمال . ويرى ماسلو أن حاجات الإنسان الروحية حاجات فطرية يتوقف على إشباعها تكامل نمو شخصية الفرد ونضوجه (٢) .

ونحن نميل فى هذا الكتاب إلى أن نضم تحت عنوان الدوافع النفسية والروحية جميع الدوافع النفسية والروحية التى يتميز بها الإنسان عن الحيوان . كما نرى أيضاً أن كثيراً من هذه الدوافع ليس مكتسباً كلية من المجتمع ، بل يوجد فيه أيضاً عناصر فطرية .

ومما تجدر الإشارة إليه أن علماء النفس المحدثين قد عنوا عناية فائقة بدراسة

---

(١) Lindzey, G., Hall, C.S. and Thompson, R.F.: *Psychology*. New York: Worth Publishers, Inc., 1976, p. 360

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٦١ .

حاجات الإنسان الفسيولوجية ، كما أن دراستهم للدوافع النفسية عنيت في الأغلب بحاجات الإنسان المختلفة المتعلقة بتوافقه الشخصي والاجتماعي لمتطلبات البيئة الاجتماعية والثقافية الخاصة التي ينشأ فيها . ولم يُعْن علماء النفس المحدثون بدراسة الناحية الروحية من الإنسان وما ينبعث منها من حاجات إنسانية نبيلة وسامية ، هي في حقيقة الأمر أهم وأرقى الحاجات الإنسانية ، وأهم ما يميز الإنسان عن بقية الحيوان . إن التزام علماء النفس المحدثين بتطبيق المنهج العلمي الذي يطبق في العلوم الطبيعية على دراسة الإنسان دفعهم إلى حصر انتباههم على دراسة نواحي السلوك الإنساني التي يمكن فقط إخضاعها للملاحظة المعملية وللبحث التجريبي ، وجعلهم يتجنبون البحث في كثير من نواحي السلوك الإنساني الهامة المتعلقة بالناحية الروحية في الإنسان . وبدلاً من محاولة ابتكار وسائل منهجية جديدة تصلح لبحث هذه النواحي الروحية في الإنسان ، فقد قاموا بإغفال دراستها كلية . غير أنه بدأت تظهر حديثاً انتقادات للاتجاه المادي الذي يغلب على دراسة علم النفس الحديث للإنسان ، ولإغفاله دراسة النواحي الروحية من سلوكه . فقد انتقد إريك فروم علم النفس الحديث لاهتمامه في أغلب الأحيان بدراسة نواحٍ تافهة وسطحية من سلوك الإنسان ، ولإغفاله دراسة مشكلات الإنسان الهامة وقيمه العليا ونواحيه الروحية ، وهي أهم ما يتميز به الإنسان[1] . وكانت مثل هذه الانتقادات هي ما حدا بماسلو إلى وضع تصنيفه لحاجات الإنسان إلى حاجات أساسية وحاجات روحية ، كما أشرنا إلى ذلك سابقاً .

دافع التملك :

دافع التملك من الدوافع النفسية التى يتعلمها الإنسان ، فى الأغلب ، أثناء تنشئته الاجتماعية . فالإنسان يتعلم من الثقافة التى ينشأ فيها ، ومن خبراته الشخصية حبه لامتلاك المال والعقارات والأراضى والممتلكات المختلفة التى تشعره بالأمن من الفقر ، وتمده بالنفوذ والجاه والقوة فى المجتمع . وقد أشار القرآن فى كثير من المواضع إلى دافع التملك .

---

(١) إريك فروم : مرجع سابق ، ص ١١ .

« زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ »(١)

« وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا »(٢)

« الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا.. »(٣)

« اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ.. »(٤)

وكان دافع التملك أحد الدافعين الهامين اللذين أثارهما إبليس في نفس آدم عليه السلام مما جعله يقع في المعصية بأكله من الشجرة التي نهاه الله تعالى عن الاقتراب منها .

« فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ »(٥)

وقد ذهب بعض علماء النفس مثل ماكدوجال إلى اعتبار التملك غريزة ، غير أن الدراسات الأنثروبولوجية والسيكولوجية الحديثة لا تؤيد الرأي القائل بأن التملك غريزة ، وهي تميل إلى اعتباره دافعاً نفسياً مكتسباً(٦) . وليس من الضروري أن نستنتج من وسوسة الشيطان لآدم بأنه سيدله على « ملك لا يبلى »

---

(١) آل عمران : ١٤ .

(٢) الفجر : ٢٠ .

(٣) الكهف : ٤٦ .

(٤) الحديد : ٢٠ .

(٥) طه : ١٢٠ .

(٦) انظر مناقشة هذا الموضوع في : محمد عثمان نجاتي : علم النفس في حياتنا اليومية ، ط ١١ . الكويت : دار القلم ، ١٩٨٤ .

إن دافع التملك فطري أو غـريزى عند آدم وأبنائه . فمن الممكن أن نفهـم أيضاً من ذلك أن إبليـس حـاول أن يثير فى نفس آدم دافعاً لم يكن مـوجوداً لديه بالفعـل في ذلك الوقـت . وبذلك يكون آدم قـد تعلم دافع التملك عـن طريق إيحاء إبليس لـه وتأثيـره فيه .

دافع العدوان :

يظهر دافع العدوان في سلوك الإنسان العدواني تجاه الآخرين بهدف إلحاق الأذى بهم سواء كان ذلك في صورة عدوان بدني ، أو في صورة عدوان لفظي . وقد أشار القرآن إلى دافع العدوان أثناء ذكره لقصة آدم وحواء وإغواء الشيطان لهما لإخراجهما من الجنة .

« فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ »(١)

« قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ .. »(٢)

وتشير هاتان الآيتـان إلى ما سيحدث بين الناس من ظلـم بعضهـم لبعض ، واعتداء بعضهم على بعض بسبب المنافسة ، والانسياق وراء شهواتهم ، وإغواء الشيطان لهم . ويشير القرآن أيضاً إلى دافع العدوان في الآية التالية من سورة البقرة .

« وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ »(٣)

---

(١) البقرة : ٣٦ .

(٢) طه : ١٢٣ .

(٣) البقرة : ٣٠ .

وقال الإمام فخر الدين الرازي في شرحه لهذه الآية : « ولما أوحى الله إلى الملائكة : (إني جاعل في الأرض خليفة ، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها) ومعناه إذا جمعت بين الشهوة والغضب وبين العقل صار مشتملاً في الهيئة قضاء الشهوة وإمضاء الغضب ، وذلك يوجب وقوع الفساد من الشهوة . وقوله : (يسفك الدماء) من استعمال الغضب . فعند ذلك أوحى الله تعالى إليهم : (إني أعلم ما لا تعلمون) »[1] .

وإن أول عدوان حصل في حياة البشر هو عدوان ابن آدم قابيل على أخيه هابيل حينما تقبل الله تعالى قربان أخيه ولم يتقبل قربانه ، فتملكته الغيرة فقتل أخاه .

« وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ۝ لَئِن بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ »[2]

ويشير القرآن أيضاً إلى السلوك العدواني الذي يظهر في تعبيرات لفظية من من غيبة ووقيعة ، أو سبّ وتهكم وسخرية ، ومن أمثلة ذلك ما جاء في الآيات التالية :

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟

---

(١) الإمام فخر الدين محمد بن عمر الرازي : كتاب النفس والروح وشرح قواهما ، تحقيق محمد صفير حسن المعصومي ، من منشورات معهد الأبحاث الإسلامية بكراتشي (د . ت) ، ص ٤ .

(٢) المائدة : ٢٧ — ٣٠ .

مَاعَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ »(١)

« إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ »(٢)

« زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ .. »(٣)

« ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ .. »(٤)

وقد اختلف علماء النفس والمحللون النفسيون في أمر العدوان ، هل هو دافع فطري أم مكتسب ؟ فذهب بعضهم مثل فرويد Freud ولورنز Lorenz إلى اعتباره دافعاً فطرياً . ولم يوافق كثير من علماء النفس الآخرين على اعتبار العدوان دافعاً فطرياً في الإنسان ، إذ أن ذلك يعطي فكرة سلبية ومتشائمة عن الطبيعة الإنسانية ، حيث يبدو الإنسان ، من وجهة النظر هذه ، ميالاً بفطرته إلى الشر والعدوان وإيذاء الآخرين . ولذلك يميل بعض علماء النفس الآخرين مثل فروم وماسلو إلى تأكيد النواحي الإيجابية والتعاونية والخيّرة في الطبيعة الإنسانية .

وبينت الدراسات التجريبية الحديثة أن السلوك العدواني يظهر عند الأطفال الصغار إذا قيدت حركاتهم البدنية مما يسبب لهم حالة إحباط ، فيظهر نتيجة لذلك السلوك العدواني . ثم تتعدد فيما بعد أثناء نمو الطفل أنواع العوائق التي تحدث له حالات إحباط ، مثل العوائق الاجتماعية والقانونية والاقتصادية

---

(١) آل عمران : ١١٨ .

(٢) الممتحنة : ٢ .

(٣) البقرة : ٢١٢ .

(٤) التوبة : ٧٩ . يلمزون يعني يعيبون .

والسياسية والنفسية . وبينت بعض الدراسات الأخرى أن الإحباط لا يؤدي بالضرورة إلى السلوك العدواني ، بل قد تظهر أنواع أخرى من السلوك مثل طلب العون والمساعدة من الآخرين ، والانسحاب ، والالتجاء إلى تعاطي الخمور والمخدرات . ويتدخل في هذا الموقف كثير من العوامل الخاصة بتربية الطفل وعلاقته بوالديه وخبراته الشخصية السابقة التي تجعل الطفل يتعلم أن يستجيب للإحباط بالسلوك العدواني . وبناء على ذلك ، فإن كثيراً من علماء النفس المحدثين يميلون إلى اعتبار أن السلوك العدواني هو ، في جزء منه ، سلوك مكتسب[1] .

وهذا الرأي الذي يقول به كثير من علماء النفس المحدثين يتفق مع ما جاء في القرآن من أن في طبيعة الإنسان استعداداً لكل من الخير والشر .

﴿ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾[2]

إن اختيار الإنسان لطريق الخير والإحسان ومعاملة الناس بالحسنى ، أو لطريق الشر والظلم والعدوان إنما يرجع إلى كثير من العوامل كنوع التربية التي يتلقاها الفرد ، والظروف الاجتماعية والثقافية التي ينشأ فيها ، وخبراته وتجاربه الشخصية . فقد يتعلم الإنسان أن يستجيب للإحباط بالسلوك العدواني ، أو بالانسحاب والانطواء ، أو قد يتعلم أن يستجيب له بالتفكير فيما يعترضه من عقبات محاولاً التغلب عليها بتعلم استجابات جديدة تكون أكثر ملاءمة للتغلب على هذه العقبات .

دافع التنافس :

والتنافس من الدوافع النفسية التي يتعلمها الإنسان من الثقافة التي ينشأ فيها . وتقوم التربية التي يتلقاها الفرد بتوجيهه إلى النواحي التي يستحسن فيها التنافس

---

(١) Morris, Charles G.: *Psychology, An Introduction*. 3rd ed., Englewood Cliffs, New Jersey, 1979, PP. 368-370.

(٢) البلد : ١٠ . أي بينا له طريق الخير وطريق الشر ، وهيأناه للاختيار . انظر : المنتخب في تفسير القرآن الكريم ، ص ٩٠٨ ، وتفسير الجلالين ، ص ٥١١ .

من أجل تقدمه ورقيه وفقاً للقيم التي يتمسك بها المجتمع الذي ينشأ فيه الفرد . فقد يتعلم الفرد من الثقافة التي ينشأ فيها التنافس الاقتصادي ، أو التنافس السياسي ، أو التنافس العلمي ، أو غير ذلك من أنواع التنافس الشائعة بين الناس في مختلف الثقافات الإنسانية . وقد حث القرآن الناس على التنافس في تقوى الله ، وعمل الخيرات ، والتمسك بالقيم الإنسانية العليا ، واتباع المنهج الرباني في الحياة سواء في علاقتهم بالله سبحانه وتعالى ، أو في علاقاتهم الأسرية ، أو في علاقاتهم مع المجتمع حتى يحظوا بمغفرة الله ورضوانه ، وينعموا بدخول الجنة . قال تعالى :

« إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ۝ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ۝ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ۝ خِتَـٰمُهُۥ مِسْكٌ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَـٰفِسُونَ »[1]

« وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ .. »[2]

« سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ »[3]

« .. فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ »[4]

دافع التدين :

إن دافع التدين دافع نفسي له أساس فطري في طبيعة تكوين الإنسان . فالإنسان يشعر في أعماق نفسه بدافع يدفعه إلى البحث والتفكير لمعرفة خالقه وخالق الكون ، وإلى عبادته والتوسل إليه والالتجاء إليه طالباً منه العون كلما اشتدت به مصائب الحياة وكروبها ، وهو يجد في حمايته ورعايته الأمن والطمأنينة . نجد

---

(١) المطففين : ٢٢ – ٢٦ .
(٢) البقرة : ١٤٨ .
(٣) الحديد : ٢١ .
(٤) المائدة : ٤٨ .

ذلك واضحاً في سلوك الإنسان في جميع عصور التاريخ ، وفي مختلف المجتمعات الإنسانية . غير أن تصور الإنسان في المجتمعات المختلفة خلال عصور التاريخ المختلفة لطبيعة الإله ، والطريقة التي يسلكها في عبادته له قد تختلف تبعاً لمستوى تفكيره ودرجة تطوره الثقافي . غير أن هذه الاختلافات في تصور الإنسان لطبيعة الإله أو طريقة عبادته إنما هي اختلافات في طريقه التعبير عن ذلك الدافع الفطري للتدين الموجود في أعماق النفس البشرية. وتبينّ بعض آيات القرآن الكريم أن دافع التدين دافع فطري . قال تعالى :

« فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ »(١)

في هذه الآية يذكر الله تعالى أن في فطرة الإنسان ، أي في خلقته وطبيعة تكوينه استعداداً فطرياً على إدراك بديع مخلوقات الله والاستدلال بها على وجود الله وتوحيده(٢) . وقال تعالى ايضاً :

« وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ »(٣)

وفي هذه الآية يبين الله تعالى أنه أخرج من صلب آدم عليه السلام وبنيه ذريتهم نسلاً بعد نسل على هيئة ذر ، وذلك قبل خلقهم في الدنيا ، وأشهدهم على أنفسهم قائلاً لهم : « ألست بربكم » فأجابوا : « بلى شهدنا » بذلك ، وقال تعالى إنه أشهدهم على ربوبيته حتى لا تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا التوحيد غافلين أو غير عالمين(٤) . ومن هذا يتبين أنه يوجد في طبيعة تكوين الإنسان استعداد

---

(١) الروم : ٣٠ .

(٢) تفسير القرطبي : جـ ١٤ ، ص ٢٩ ؛ تفسير الجلالين : ص ٣٤٠ ، ٣٤١ .

(٣) الأعراف : ١٧٢ .

(٤) تفسير ابن كثير : جـ ٢ ، ص ٢٦٢ ؛ تفسير الجلالين : ص ١١٤ .

فطري لمعرفة الله وتوحيده . فالاعتراف بربوبية الله متأصل في فطرته ، وموجود منذ الأزل في أعماق روحه . غير أن امتزاج الروح بالجسد ، وانشغال الإنسان بمطالب جسده ، وبمطالبه المختلفة التي تستلزمها حياته في الدنيا وعمارة الأرض ، قد جعل هذه المعرفة بربوبية الله ، وهذا الاستعداد الفطري للتوحيد عرضة لأن تطمره الغفلة ، ويغمره النسيان ، ويطويه اللاشعور في أعماقه . ويصبح الإنسان في حاجة إلى ما يوقظ هذا الاستعداد الفطري ، وينفض عنه غبار النسيان ، ويبعثه من أعماق اللاشعور ليظهر واضحاً جلياً في الإدراك والشعور . ويتم ذلك عن طريق تفاعل الإنسان مع الكون ، ونظره إلى عجيب خلق الله في نفسه ، وفي سائر مخلوقات الله ، وفي الكون بأسره .

وفى الحديث النبوى أيضاً ما يدل على أن فى الإنسان استعداداً فطرياً لمعرفة الله سبحانه وتعالى وعبادته . فعن أبى هريرة أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال :

« مامن مولود إلاّ يولد على الفطرة فأبواه يهوّدانه وينصّرانه ويمجسانه كما تُنتج البهيمة بهيمة جمعاء ، هل تُحِسُّون فيها من جَدْعاء » . ثم قال ابو هريرة : واقرأوا إن شئتم : فطرت الله التى فطر الناس عليها »[1] .

ففى هذا الحديث يبين الرسول صلى الله عليه وسلم أن الإنسان يولد ولديه استعداد فطرى للدين الحنيف . فكما تولد البهيمة سليمة بلا تشويه أو نقص ، فكذلك يولد الطفل على الفطرة السمحاء ، وعلى الدين الحنيف ، بلا زيغ أو انحراف . ويشبه الرسول صلى الله عليه وسلم مايحدثه تأثير الوالدين البيئة الإجتماعية والثقافية التى ينشأ فيها الطفل من تأثير فى فطرته ، فتنحرف به إلى دين آخر غير الدين الحنيف ، بما يحدثه صاحب البهيمة من تشويه فى بهيمته حينما يشق أذنها أو أنفها .

ومن العوامل التي تساعد على إيقاظ وبعث دافع التدين في الإنسان ما يحيط به في بعض الحالات من أخطار تهدد حياته ، وتسد أمامه جميع سبل النجاة ، فلا يجد منها مهرباً إلا الالتجاء الى الله فيتجه اليه سبحانه وتعالى بدافع فطري

---

(١) رواه الشيخان وأبو داود والترمذى . انظر أيضاً مناقشتنا لدافع التدين فى كتابنا « الحديث النبوى وعلم النفس » ، بيروت : دار الشروق ، ١٩٨٩ ، ص ٣٣ . جمعاء : كاملة الخلق لجميع أعضائها ، جدعاء : ناقصة .

طالباً منه المعونة والنجدة مما يحيط به من أخطار [1] قال تعالى :

« هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ » [2]

« قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ » [3]

وكون الإنسان ، فى كل مكان ، وفى جميع عصور التاريخ ، منذ بدء الخليقة حتى الآن ، إنما يشعر في حالات الخطر التى تحدق به ، بحافز إلى الاستنجاد بقوة أسمى وأقوى وأعظم منه ، إنما يدل على أن الدين فطري في طبيعة الإنسان [4] .

الدوافع اللاشعورية

قد يشعر الإنسان أحياناً ببعض الرغبات أو الدوافع غير المقبولة أو المثيرة لقلقه فيعمل على إبعادها من دائرة وعيه أو شعوره مما يؤدي في النهاية إلى كبتها في اللاشعور . غير أنه كثيراً ما يحدث أن يقوم الإنسان بالتعبير عن هذه الرغبات والدوافع بطريقة لا شعورية في صورة فلتات اللسان وأخطاء الكلام .

وقد أشار القرآن إلى التعبير اللاشعوري عن طريق فلتات اللسان عما يجيش

---

(١) البهى الخولى : آدم عليه السلام . فلسفة تقويم الإنسان وخلافته ، ط ٣ . القاهرة : مكتبة وهبه ، ١٩٧٤ ، ص ١٧٦ .

(٢) يونس : ٢٢ .

(٣) الأنعام : ٦٣ .

(٤) أ . كرمى موريسون : العلم يدعو إلى الإيمان . ترجمة محمود صالح الفلكى ، الطبعة الخامسة ، القاهرة : مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٦٥ ، ص ٢٠٢ .

في النفس من دوافع يحاول الإنسان كتمانها وإخفاءها ، وذلك في قوله تعالى :

« أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ۝ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ »[1]

ويروى عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه أنه قال في هذا المعنى : « ما أسرّ أحد سريرة إلا أبداها الله على صفحات وجهه وفلتات لسانه »[2] . وفي الحديث الشريف : « ما أسرّ أحد سريرة إلا كساه الله جلبابها إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر »[3] .

وسوف نرى فيما بعد أثناء كلامنا عن الشخصية في الفصل التاسع أن القرآن قد أشار أيضاً إلى بعض الحيل العقلية اللاشعورية كالتبرير ، والإسقاط ، وتكوين رد الفعل . ويتضح من ذلك أن القرآن قد تعرَّض للناحية اللاشعورية من سلوك الإنسان قبل دراسة فرويد مؤسس نظرية التحليل النفسي لها بأربعة عشر قرناً من الزمان .

الصراع بين الدوافع

إذا تعارضت بعض دوافع الإنسان بأن يجذبه ، مثلاً ، دافع ما إلى اتجاه معين ، ويجذبه دافع آخر إلى اتجاه مضاد ، أحس الإنسان بحالة من الحيرة والتردد والعجز عن اتخاذ قرار في أي اتجاه يسير . وتعرف هذه الحالة بالصراع النفسي . وقد صور القرآن حالة الصراع النفسي التي يعانيها بعض الأفراد الذين

---

(١) محمد : ٢٩ ، ٣٠ .

(٢) تفسير ابن كثير : ، ص ١٨٠ .

(٣) المرجع السابق : ص ١٨٠ .

يقفون من الإيمان موقف تردد وريبة ، فلا هم يتجهون اتجاهاً تاماً إلى ناحية الإيمان ، ولا هم يتجهون اتجاهاً تاماً إلى ناحية الكفر ، ولكنهم يقفون بين الإيمان والكفر موقف المتردد العاجز عن اتخاذ قرار نهائي في هذا الأمر . قال تعالى :

« قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا .. »(١)

في هذه الآية وصف دقيق لحالة الصراع النفسي وما تسببه للفرد من حيرة وتردد . فالشياطين من جهة تستهوي الفرد وتجذبه إلى ناحية الضلال والكفر ، وأصحابه المؤمنون من جهة أخرى يدعونه إلى الهدى والإيمان ، وهو واقف بين هاتين الدعوتين في حيرة وبلبلة وتردد . ويصف القرآن أيضاً حالة التردد والحيرة والريبة والاضطراب التي تصاحب الصراع النفسي بين الكفر والإيمان في قوله تعالى :

« إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ »(٢)

« إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ۝ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا »(٣)

---

(١) الأنعام : ٧١ .

(٢) التوبة : ٤٥ .

(٣) النساء : ١٤٢ ، ١٤٣ .

ويصف القرآن أيضاً حالة الصراع النفسي التي يعانيها بعض الأفراد الذين يقفون موقف الحيرة والتردد بين أن يقاتلوا المسلمين من جهة ، وأن يقاتلوا قومهم من المشركين من جهة أخرى ، وما يسببه لهم هذا الصراع من حيرة وضيق وحرج . قال تعالى :

« إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُوا۟ قَوْمَهُمْ .. »(١)

السيطرة على الدوافع

يتبين لنا مما سبق أن مشيئة الله سبحانه وتعالى قد اقتضت وجود الدوافع الفسيولوجية في فطرة كل من الحيوان والإنسان لتحقيق الأهداف التي أرادها الله تعالى منها وهي حفظ الذات وبقاء النوع . ومن الطبيعي أن يكون إشباع هذه الدوافع أمر ضروري تقتضيه الفطرة ، وتستلزمه طبيعة تكوين كل من الحيوان والإنسان ، إذ يتوقف على إشباعها استمرار الحياة وبقاء النوع . ولذلك جاءت أحكام القرآن وأوامره في شأن هذه الدوافع متفقة مع فطرة الإنسان ، فهي تعترف بها وتقرها وتدعو إلى إشباعها في الحدود التي بيّنها الشرع . وليس في القرآن ولا في السنة ما يشير إلى استقذار هذه الدوافع أو إنكارها أو يدعو إلى كبتها وإنما يدعو القرآن ، وكذلك تدعو السنة ، إلى السيطرة على الدوافع والتحكم فيها ، وإشباعها فقط في الحدود التي يسمح بها الشرع ، دون إسراف أو تجاوز لهذه الحدود ، وذلك لمصلحة الفرد والجماعة .

ويجب أن نفرق بين القمع والكبت . القمع هو الكفّ الإرادي لدافع أو رغبة ما ومقاومة إشباعها أو التعبير عنها في ظروف لا تسمح بإشباعها . ولكنه لا يتضمن إنكار هذه الرغبة على وجه الإطلاق ، حيث أنه من الممكن إشباعها في ظروف أخرى ملائمة ومسموح بها . أما الكبت فهو إنكار الرغبة واستقذارها

(١) النساء : ٩٠ .

أو الخوف منها ، ومحاولة إبعادها نهائياً عن دائرة الوعي تخلصاً مما تسببه من شعور بالإثم أو القلق ، بحيث ينتهي الأمر إلى كبت هذه الرغبة في اللاشعور . ففهوم الكبت يتضمن أن الرغبة أصبحت مبعدة عن دائرة الوعي أو الشعور ، وأصبحت مطمورة في أعماق اللاشعور . ووجود الرغبة في اللاشعور لا يقضي عليها نهائياً ، بل تظل تحاول التعبير عن نفسها ، ولكن بطرق وحيل لا شعورية ، مما يسبب نشوء كثير من الأعراض المختلفة لاضطرابات السلوك .

والقرآن لا يدعو إلى كبت دوافعنا الفطرية بالمعنى الذي بيناه سابقاً ، ولكنه يدعو إلى تنظيم إشباعها ، والتحكم فيها ، وتوجيهها توجيهاً سليماً تراعى فيه مصلحة الفرد والجماعة ، بحيث يصبح الفرد هو المسيطر على دوافعه ، والموجه لها ، ولا تكون دوافعه هي المسيطرة عليه والموجهة له . ويتبين رأي القرآن بوضوح في اعترافه بمشروعية إشباع الدوافع الفسيولوجية من الآيات التالية :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَـٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ »(١)

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ »(٢)

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَـٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَـٰلًا طَيِّبًا وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ »(٣)

« .. كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ .. »(٤)

---

(١) البقرة : ١٦٨ .
(٢) البقرة : ١٧٢ .
(٣) المائدة : ٨٧ ، ٨٨ .
(٤) البقرة : ٦٠ .

« يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ۝ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ »[1]

« وَأَنكِحُواْ ٱلۡأَيَٰمَىٰ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنۡ عِبَادِكُمۡ وَإِمَآئِكُمۡۚ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغۡنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ »[2]

« وَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تُقۡسِطُواْ فِي ٱلۡيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ »[3]

« نِسَآؤُكُمۡ حَرۡثٞ لَّكُمۡ فَأۡتُواْ حَرۡثَكُمۡ أَنَّىٰ شِئۡتُمۡ .. »[4]

يتضح من هذه الآيات التي ذكرناها أن القرآن لايدعو الإنسان إلى إنكار دوافعه الفطرية وكبتها ، وهو بذلك يجنبه الوقوع في الصراع النفسي الذي ينشأ من إنكار الإنسان لدافعه الجنسي وقيامه بكبته مما يؤدي إلى نشوء أعراض اضطرابات السلوك . ولكن القرآن مع ذلك لايطلق العنان للإنسان لإشباع دوافعه الفطرية بلا حدود ، ولكنه يدعوه إلى تنظيم إشباعها ، والسيطرة على زمامها[5] .

---

(١) الأعراف : ٣١ ، ٣٢ .

(٢) النور : ٣٢ .

(٣) النساء : ٣ .

(٤) البقرة : ٢٢٣ .

(٥) انظر أيضاً في هذا الصدد : محمد قطب : الإنسان بين المادية والإسلام ، ط ٣ . القاهرة : عيسى البابي الحلبي وشركاه ، ١٩٦٠ ، ص ٨٤ – ٩١ ؛ محمد قطب : منهج التربية الإسلامية ، ط ٢ . بيروت : دار الشروق ، (د . ت) ، ص ١٢٨ – ١٢٩ ، ١٤٥ .

ولا حرج على الإنسان من التمتع بإشباع دوافعه الفطرية ما دام يشبعها عن الطريق الحلال والمسموح به شرعاً . غير أن القرآن يدعو إلى نوعين من التنظيم فيما يتعلق بإشباع الدوافع الفطرية . الأول هو إشباعها فقط عن الطريق الحلال المسموح به شرعاً . والثاني هو عدم الإسراف في إشباعها .

وفيما يتعلق بالتنظيم الأول لإشباع دوافعنا الفسيولوجية وهو إشباعها فقط عن الطريق الحلال ، فالقرآن ينهانا عن إشباع دافع الجوع عن طريق الكسب الحرام ، كما ينهانا عن أكل أنواع معينة من المأكولات لما فيها من أضرار بصحة الإنسان ، كما ينهانا عن شرب الخمر لما فيها أيضاً من أضرار بصحة الإنسان البدنية والعقلية ، كما ينهانا عن إشباع الدافع الجنسي عن غير طريق الزواج لما في ذلك أيضاً من أضرار كثيرة صحية واجتماعية . وقد نظم الله تعالى للإنسان طريقة إشباع الدافع الجنسي بأن خلق الذكر والأنثى ، وجعل من حياتهما معاً في الأسرة وسيلة لإشباع الدافع الجنسي ، ولتحقيق الأمن والطمأنينة لهما بما تتضمن الحياة الأسرية للإنسان من محبة ومودة وتعاون وإيثار .

« وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ »(١)

« .. هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ .. »(٢)

أما إذا لم تسمح ظروف الإنسان بالزواج ، فعليه أن يستعفف وأن يسيطر على دافعه الجنسي ويقمعه حتى تسمح له الظروف بالزواج(٣) .

---

(١) الروم : ٢١ .

(٢) البقرة : ١٨٧ .

(٣) يلاحظ ان المرضى العصابيين الذين كان يعالجهم سيجمند فرويد نشأوا في الأغلب في مجتمعات أوروبا المسيحية التي كانت في ذلك الوقت تنظر إلى الجنس باعتباره دافعاً غير مقبول ويجب كبته ، ولذلك لم يكن غريباً أن يلاحظ فرويد وجود علاقة بين كبت الدافع الجنسي وبين الأمراض العصابية . ومع ان بعض تلاميذ فرويد مثل أدلر ويونج وغيرهما من المحللين النفسيين الآخرين مثل كارن هورني وإريك فروم لم يوافقوا فرويد على اهتمامه الزائد بالغريزة الجنسية وبتفسيره للأمراض العصابية على =

« وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ . . »[1]

وقام الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أيضاً بحث الشباب على الزواج ، فهو الوسيلة المثلى للتغلب على الدافع الجنسى ، ومن لم يستطع منهم الزواج فقد حثهم على السيطرة على الدافع الجنسى عن طريق الصوم . فعن عبد الله بن مسعود أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم وقال : « يامعشر الشباب ، من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، فإنه أغض للبصر ، واحصن للفرج . ومن لم يستطع فعليه بالصوم ، فإنه له وجاء »[2] .

وقد حرص القرآن على أن يعيش الشباب المسلم في مجتمع يساعد على السيطرة على دافعه الجنسى ، ولايعرضهم إلى مامن شأنه أن يثير هذا الدافع ويهيجه ، ولذلك طالب القرآن المسلمين بغض النظر ، كما طالب النساء بإخفاء زينتهن ومحاسنهن الخلقية التي قد تفتن الرجال كالشعر والعنق والصدر . وحث القرآن المؤمنين علي غض أبصارهم لوقايتهم من رؤية مايثير فيهم الدافع الجنسي مما قد يؤدى بهم إلى الانزلاق فى تيار الشهوات التي تدفع بهم إلى هاوية المعصية . قال الله تعالى :

= أساس انها ناشئة عن كبتها ، إلا أنه يجدر بنا أن نلاحظ أنه حتى ولو كانت النتائج التي وصل إليها فرويد صحيحة بالنسبة لبعض الحالات في ذلك المجتمع الذي عاش فيه فرويد ، فليس من الضروري أن تكون صحيحة أيضاً في مجتمعات أخرى تختلف في ثقافتها عن المجتمع الذي عاش فيه فرويد . ويتضح من عرضنا لموقف الإسلام من الدافع الجنسي ، وعدم إنكاره له ، وعدم النظر إليه باعتباره شيئاً مستقذراً يجب كبته ، أننا لا نتوقع أن نجد في المجتمع الإسلامي الذي يربي أطفاله تربية إسلامية سليمة ، ويشجع شبابه على الزواج المبكر ، ويتخلص من العادات والتقاليد التي تحول دون تحقيق ذلك ، إننا لا نتوقع أن نجد في مثل هذا المجتمع ضرورة لكبت الدافع الجنسي ، كما لا نتوقع أن نجد في تربية الشباب على التحكم في الدافع الجنسي والسيطرة عليه وكفه عن الإشباع حتى يحين الوقت المناسب للزواج أثراً ضاراً بالصحة النفسية إذا ما أقبل الشباب على العبادات وخاصة الصيام كوسيلة تساعد على السيطرة على الطاقة الغريزية وإعلائها ، وإذا ما توافرت لديه أيضاً وسائل الإعلاء الأخرى كالرياضة البدنية ، والإسهام في كثير من أنواع النشاط الاجتماعي المختلفة ، والإقبال على تحصيل العلوم والآداب والفنون .

(١) النور : ٣٣ .

(٢) رواه البخارى ، جـ ١٩ ، ص ١٢٩ ـ ١٣٢ ، الحديث رقم ٥٠٦٥ ؛ ومسلم ، جـ ٩ ، ص ١٢٢ ؛ وأبو داود ، جـ ٢ ، الحديث رقم ٢٠٤٦ ، كما رواه الترمذى والنسائى والدارمى وأحمد . الباءة : مؤن الزواج . وجاء : صيانة ووقاية .

« قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ۝ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ »[1]

ونهى الرسول عليه الصلاة والسلام عن الخلوة بين الرجل والمرأة لأن فيها منزلقاً إلى إثارة الدافع الجنسي . كما وجه القرآن الناس إلى ضرورة التنبيه على الخدم والأطفال الذين لم يصلوا إلى مرحلة البلوغ بعدم الدخول بدون استئذان على أماكن تواجد الرجال والنساء في ثلاثة أوقات من اليوم هي : قبل صلاة الفجر ، ووقت القيلولة في الظهر ، وبعد صلاة العشاء عند الاستعداد للنوم .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِّن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ »[2]

---

(١) النور ٣٠ ، ٣١ .

(٢) النور : ٥٨ .

ففي هذه الأوقات الثلاثة المذكورة في الآية يتحرر الإنسان عادة من ملابسه التي يقابل بها الناس عادة ، ويرتدي ملابس النوم والراحة مما يمكن أن يظهر من عورات الجسم ما لاينبغي أن يراه الناس . والحكمة من تحذير القرآن من دخول الخدم والأطفال بدون استئذان على الرجال والنساء في هذه الأوقات إنما هو للوقاية من اطلاعهم على مالاينبغي اطلاعهم عليه من عورات الرجال والنساء مما قد يؤدي ، فضلاً عن خدش حياء الرجال والنساء ، إلى إثارة الدافع الجنسي لدى الخدم ، واحتمال اطلاع الأطفال على عورات آبائهم وأمهاتهم ، وعلى بعض نواحي المباشرة الجنسية بينهم . وقد بينت دراسات التحليل النفسي الآثار السيئة التي تتركها في نفوس الأطفال رؤية مثل هذه الأمور [1] . كما تطالعنا الصحف من وقت إلى آخر بالمآسي التي تلحق بعض الأسر من اختلاط الخدم بالفتيات والنساء فيها بدون قيود منظمة ، ورقابة واعية . وهكذا نرى أن الإسلام يحرص على القضاء على أسباب الفتنة والغواية ، وعلى الوقاية من الوقوع فى المحظور ، ويسد جميع الطرق التي قد تؤدي إلي الوقوع في المحرمات .

أما فيما يتعلق بالتنظيم الثاني للدوافع الفسيولوجية وهو عدم الإسراف في إشباعها ، فإننا نعلم من خبرتنا الشخصية ومن الدراسات الطبية أنّ الإسراف في الأكل مضر بصحة الإنسان إذ يصيبه بالتخمة وببعض أمراض الجهاز الهضمي ، ويسبب له السمنه التي لها أضرار كثيرة على صحة الإنسان . وكذلك فإن الإسراف في شرب الماء ، والإسراف في الراحة والكسل والنوم أمر يضر بالصحة . ولذلك نهى الله سبحانه وتعالى عن الإسراف في الأكل والشرب .

« يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ »[2]

ومن الطبيعي أن نفهم أن هذا النهي عن الإسراف ليس مقصوراً فقط على دافعي الجوع والعطش بالذات ، وإنما هو ينسحب أيضاً إلى باقي الدوافع الفسيولوجية الأخرى . وما ذكر القرآن دافعي الجوع والعطش في معرض النهي

---

(١) احمد محمد جمال : نحو تربية إسلامية . جدة : تهامة ، ١٩٨٠ ، ص ٧٨ ، ٧٩ .

(٢) الأعراف : ٣١ .

عن الإسراف إلا على سبيل المثال أو الإشارة فقط إلى الضرر الذي يلحق الإنسان من الإسراف في إشباع دوافعه الفطرية بعامة . وهذه هي إحدى خصائص أسلوب القرآن الذي يكتفي في كثير من آياته بالإيجاز والإشارة والتلميح . ولعل الاكتفاء بذكر الجوع والعطش في معرض النهي عن الإسراف في إشباع الدوافع الفطرية يرجع أيضاً إلى وضوح أهمية هذين الدافعين في حفظ الذات ، وإلى ميل الإنسان عادة إلى الإسراف في إشباعهما .

ولا يُعْنىَ القرآن بتوجيه الإنسان إلى السيطرة على دوافعه الفسيولوجية فقط ، وإنما هو يعنى كذلك بتوجيهه إلى السيطرة على دوافعه النفسية أيضاً . ففي كثير من المواضع يحثّ القرآن على السيطرة على دافع العدوان ودافع التملك . فضبط النفس ، والتحكم في أهوائها وشهواتها سواء كانت بدنية أو نفسية من الخصال التي يجب أن يتحلى بها المؤمن السوي الشخصية .

ففيما يتعلق بدافع العدوان فإن القرآن ينهى الناس عن ظلم الآخرين والعدوان عليهم سواء بدنياً أو لفظياً ، ويأمرهم بمعاملة الناس بالحسنى وباللين والمعروف .

« وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا »(١)

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ »(٢)

« .. وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ .. »(٣)

---

(١) الأحزاب . ٥٨ .
(٢) المجادلة : ٩ .
(٣) المائدة : ٢ .

« .. وَلَا تَعْتَدُوٓا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ »[1]

« .. وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ .. »[2]

« وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ »[3]

ويدعو القرآن الناس أيضاً إلى ضبط دافع التملك ، فينهاهم عن الشُحّ ، واكتناز الأموال ، والربا ، وأكل اموال الناس بالباطل ، والسرقة ، كما يأمرهم بالإنفاق في سبيل الله ، وبالتصدق على الفقراء والمساكين ، وبإيتاء الزكاة .

« .. وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ »[4]

« وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ

---

(١) المائدة : ٨٧ .

(٢) الأنعام : ١٥١ .

(٣) الحجرات : ٩ ـ ١١ .

(٤) التوبة : ٣٤ ، ٣٥ .

هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ »(١)

« فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ »(٢)

« وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ »(٣)

« إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ »(٤)

« قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ »(٥)

إن من المبادئ التي يقررها الإسلام أن المال هو مال الله تعالى ، وأن كل مايرزقنا الله تعالى من مال ، فإنما يستخلفنا الله تعالى فيه . إن التسليم بهذا المبدأ الإسلامي كفيل بمقاومة شحّ الإنسان وحرصه على اكتناز المال ، وكفيل بتشجيعه على الجود والكرم وسد حاجات المحتاجين والفقراء والمساكين ، والإنفاق فى سبيل الله من مال الله تعالى الذى استخلفنا فيه .

« آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ »(٦)

---

(١) آل عمران : ١٨٠ .
(٢) التغابن : ١٦ .
(٣) المنافقون : ١٠ .
(٤) الحديد : ٧ .
(٥) ابراهيم : ٣١
(٦) الحديد : ٧

وعلى وجه عام ، فإن القرآن يدعو الإنسان إلى ضبط دوافعه والتحكم فيها وتوجيه إشباعها في إطار الحدود المشروعة دون إسراف ، فلا يكون عبداً لأهوائه وشهواته ، وإنما يكون هو المسيطر عليها والمتحكم فيها والموجه لها .

« فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ »[1]

ونهْيُ النفس عن الهوى هو ضبط الإنسان لدوافعه ، وكفُّه لشهواته ، وسيطرته عليها .

ويدعو القرآن الإنسان إلى أن يوازن بين متطلبات بدنه في حياته اليومية التي تلح عليه لإشباعها ، ومتطلبات روحه المتشوقة إلى الله تعالى ، والمتطلعة إلى النعيم في الحياة الآخرة . فعلى الإنسان أن يلبي حاجاته البدنية ويشبع دوافعه الفطرية لكي يعيش ويبقى ويعمر الأرض ويؤدي رسالته في الحياة التي خلقه الله تعالى لها . ولكن يجب على الإنسان أيضاً أن يلبي متطلباته الروحية من الاعتراف بربوبية الله وعبادته واتباع المنهج الذي رسمه الله تعالى له في الحياة لكي ينعم بمغفرته ورضوانه في الحياة الآخرة . إن الإنسان مطالب بأن يجد ويجتهد في تحقيق هذا التوازن بين متطلبات الجسم ومتطلبات الروح ، بين متطلبات الحياة الدنيوية ومتطلبات الحياة الآخرة ، لأن في ذلك خلاصاً من الصراع النفسي الذي يصيب الإنسان بالقلق ، ويحرمه من نعمة الأمن والطمأنينة والسعادة .

« وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا .. »[2]

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ »[3]

---

(١) النازعات : ٣٧ ـ ٤١ .
(٢) القصص : ٧٧ .
(٣) المنافقون : ٩ .

وتتضح دعوة القرآن للإنسان إلى ضبط دوافعه والتحكم فيها والعمل على إعلائها والتسامي بها وتوجيهها إلى ما يرضي الله تعالى وما فيه خير الفرد والمجتمع والإنسانية ، من أن القرآن حينما ذكر في سورة آل عمران بعض الدوافع التي يهتم الناس عادة بإشباعها في حياتهم الدنيوية ، ذكر بعدها مباشرة أن تقوى الله أفضل للإنسان من الانغماس في إشباع هذه الدوافع في الحياة الدنيوية لأن التقوى ستحقق لهم التمتع برضوان الله ونعيمه في الآخرة .

« زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ۝ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ »[1]

في هاتين الآيتين دعوة صريحة إلى الناس لضبط دوافعهم وإعلائها والتسامي بها عن طريق تقوى الله وابتغاء مرضاته . وجاء في القرآن في هذا المعنى أيضاً :

« الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا »[2]

« اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ »[3]

---

(١) آل عمران : ١٤ ، ١٥ .

(٢) الكهف : ٤٦ .

(٣) الحديد : ٢٠ .

وفي هذه الآيات تنبيه للإنسان إلى أن ما في الحياة الدنيا من لعب ولهو وزينة وتفاخر بكثرة الأموال والبنين إنما مصيره إلى زوال كما يزول النبات الذي يذبل ويبس وتعصف به الرياح ، وأن ما يبقى هو عمل الإنسان . فإن من آثر الحياة الدنيا على الآخرة وكان كل همه في حياته الدنيا الإنشغال بإشباع دوافعه وشهواته وتحصيل اللذات فقط ، وغفل عن طاعة الله وعبادته ، فمصيره في الآخرة عذاب شديد . وأما من لم يغفل في حياته الدنيوية عن طاعة الله وعبادته ، وعمل الصالحات ، وتحكم في أهوائه وشهواته فجزاؤه مغفرة من الله ورضوان . وجاء في القرآن أيضاً في هذا المعنى :

« وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ »(١)

انحراف الدوافع

إذا فشل الإنسان في ضبط دوافعه والتحكم فيها ، فأسرف في إشباعها ، وانغمس في لذاتها ، وجعل الحصول على لذة الإشباع هدفاً في ذاته ، انحرفت الدوافع عن اهدافها الحقيقية ، فلم تعد بعد وسيلة لاستمرار حياة الفرد وبقاء النوع ، وإنما أصبحت غاية في ذاتها ، ولم يعد الإنسان هو المسيطر عليها والمتحكم فيها ، وإنما أصبحت هي المسيطرة عليه والمتحكمة فيه . وانحراف الدوافع وسيطرتها على الإنسان قد يحدث بالنسبة لكل من الدوافع الفسيولوجية والنفسية على السواء ومن أهم دوافعنا الفسيولوجية المعرضة للانحراف الدافع الجنسي . وقد ذكر القرآن نوعاً شائعاً من الانحراف الجنسي وهو الجنسية المثلية التي مارسها قوم لوط . ويتضح مما قاله القرآن عن هذا الانحراف الجنسي أنه ظهر لأول مرة في تاريخ البشرية بين قوم لوط .

« وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ

---

(١) الأنعام : ٣٢ .

ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ »[1]

« أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ »[2]

ومن الانحرافات الشائعة في دوافعنا النفسية ما نشاهده لدى بعض الناس من الحب الشديد للمال ، وتلهفهم على امتلاكه واكتنازه . والمال في الأصل هو مال الله تعالى استخلفنا فيه لإنفاقه في سبيله ، وفيما يرضيه ، وفيما يحقق إعمار الأرض وتقدم الإنسانية . غير أن بعض الناس يجعلون تملك المال هدفاً في ذاته ، فيقومون باكتنازه ولا ينفقونه في سبيل الله وفيما يفيد الناس ويساعد على تقدم البشرية .

وعلى وجه عام ، فإن الإسراف في إشباع الدوافع ، وعجز الإنسان عن ضبطها والتحكم فيها يؤدي إلى انحراف هذه الدوافع عن أهدافها الحقيقية في استمرار حياة الفرد وبقائه وتحقيق خيره وخير المجتمع . فالإسراف في العدوان ، مثلاً ، بحيث يصبح الإنسان ميالاً في علاقاته مع الناس إلى العدوان والظلم انحراف . والإسراف في التنافس بحيث يصبح الهدف الرئيسي للإنسان في الحياة هو التفوق على الغير والسيطرة عليهم بدنياً أو اقتصادياً أو سياسياً أو عسكرياً إنما هو انحراف . والإسراف في طلب الراحة والخمول والكسل ، والتمتع بنعيم الحياة وملاذها ، بحيث يصبح الهدف الرئيسي للإنسان هو أن يحيا حياة دعة وترف وخمول دون أي شعور بالمسؤولية تجاه أفراد المجتمع الذي يعيش فيه ، والتعاون معهم ، وتقديم يد العون والمساعدة إليهم ، إنما هو انحراف . والاعتدال في إشباع الدوافع ، وعدم الإسراف في إشباعها وقاية للإنسان من الانحراف . فخير الأمور الوسط .

---

(١) الأعراف : ٨٠ ، ٨١ .

(٢) الشعراء : ١٦٥ ، ١٦٦ .

« وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا »[1]

« وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا »[2]

---

(١) الفرقان : ٦٧ .

(٢) الإسراء : ٢٩ .

الفصل الثالث

الإدراك الحسّي في القرآن

لقد أرادت مشيئة الله سبحانه وتعالى أن يزود الإنسان والحيوان بكل الإمكانات والوظائف الضرورية للحياة والبقاء ، فزودهما ، بالإضافة إلى الدوافع والانفعالات ، بأجهزة يدركان بها العالم الخارجي وما يدور حولهما من أحداث ؛ كما يدركان بها عالمهما الداخلي وما يحدث فيه من تغيرات . والإدراك الحسي وظيفة هامة في الحياة ، فبه يدرك الكائن الحي ما يؤذيه فيتجنبه ، وما يفيده فيسعى إليه .

ويتم إدراكنا للعالم الخارجي بالحواس الظاهرة وهي السمع والبصر والشم والذوق والحواس الجلدية ، كما يتم عن طريق الإحساس الداخلي إدراكنا لما يحدث في بدننا من اختلال في الاتزان العضوي والكيميائي كالجوع والعطش ، مما يجعلنا نقوم بالسلوك الملائم سواء لظروف العالم الخارجي ، أو لسد النقص في أنسجة البدن وإعادته إلى حالته السابقة من الاتزان العضوي والكيميائي .

والإدراك الحسي وظيفة يشترك فيها كل من الإنسان والحيوان . غير أن الله سبحانه وتعالى قد خص الإنسان بوظيفة إدراكية أخرى هامة يتميز بها عن الحيوان ، ألا وهي العقل ، الذي به يستطيع الإنسان أن يعلو بإدراكه عن الأشياء المحسوسة ، فيفكر في المعاني المجردة كالخير والشر ، والفضيلة والرذيلة ، والحق والباطل ، والذي به يستطيع أن يستدل على المبادئ العامة من الملاحظات والتجارب . فبالعقل ، مثلاً ، يستطيع الإنسان أن يستدل من بديع خلق الله تعالى للكون بأسره وللإنسان نفسه ، على وجود الخالق وقدرته سبحانه وتعالى .

«سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ»[1]

غير أن قدرة العقل الإنساني على الإدراك والمعرفة محدودة ، ثم إن تفكير الإنسان معرض للخطأ . فقد تطرأ ظروف معينة تعوق الإنسان عن التفكير السليم ، ويصبح الإنسان محتاجاً إلى من يرشده ويوجهه ويعلمه . ولذلك أرسل الله سبحانه وتعالى الأنبياء والرسل إلى الناس ، وأنزل الكتب المقدسة لكي يرشدهم إلى ما فيه خيرهم وصلاحهم .

«وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ . .»[2]

«إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ»[3]

«كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ»[4]

فالحواس والعقل ، إذن ، وسيلتان يستعين بهما الإنسان في الإدراك والمعرفة ، ولكنهما غير كافيتين وحدهما للوصول إلى المعرفة اليقينية في كثير من الأمور . فهما لا يستطيعان ، مثلاً ، معرفة الأمور الغيبية التي لا يستطيع أن يدركها الإنسان بحسه أو بعقله ، ولذلك يصبح من الضروري أن يتلقى الإنسان المعرفة من الله سبحانه وتعالى لكي ينظم حياته على الأرض بما يكفل له تحقيق السعادة في الدنيا والآخرة . ويتلقى الإنسان هذه المعرفة من الله تعالى عن طريق الرسل والأنبياء ، أو عن طريق الإلهام والفيض الإلهي الذي يخص الله به بعض أوليائه .

وسنحاول أن نتناول في هذا الفصل موضوع الإدراك الحسي في القرآن ،

---

(١) فصلت : ٥٣ .

(٢) النحل : ٣٦ .

(٣) فاطر : ٢٤ .

(٤) البقرة : ١٥١ .

مؤجلين الكلام عن التفكير والمعرفة الربانية التي يتلقاها الإنسان عن الله تعالى عن طريق الوحي والإلهام إلى فصول تالية .

الحواس في القرآن .

يولد الطفل لا يعلم شيئاً ، ثم لا يلبث أن تبدأ حواسه في أداء وظائفها ، فهو يتأثر بما يقع عليه من مؤثرات خارجية محدثة فيه إحساسات مختلفة هي الأساس الذي يتكون منه فيما بعد إدراكه ومعرفته بالعالم الخارجي . وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة في كثير من الآيات ، نذكر منها على سبيل المثال :

« وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ »(١)

« وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ »(٢)

« قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ »(٣)

« ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ »(٤)

واكتفى القرآن بذكر السمع والبصر كأداتين من أدوات الإحساس وذلك ، أولاً ، لأهميتهما القصوى في عملية الإدراك الحسي ؛ وثانياً ، لأن في ذكرهما ما يكفي للدلالة على أهمية جميع الحواس في عملية الإدراك الحسي . وهذه خاصة من خصائص أسلوب القرآن الذي يتميز بالإيجاز البليغ والذي يكتفي

(١) النحل : ٧٨ .
(٢) المؤمنون : ٧٨ .
(٣) الملك : ٢٣ .
(٤) السجدة : ٩ .

بالتلميح والإشارة إلى الحقائق الأساسية العامة ، ويتغاضى عن التفصيلات . فليس القرآن كتاب علم ، وانما هو كتاب هداية للناس . وإنه ليكفي هنا في هذا الصدد للدلالة على نعمة الله تعالى على الإنسان بتزويده بأدوات للإدراك الحسي أن يشير القرآن فقط إلى السمع والأبصار .

ويأتي ذكر السمع في القرآن قبل الأبصار في كثير من الآيات ، وذلك ، فيما يبدو ، لعدة اعتبارات . فأولاً ، إن السمع أهم من البصر في عملية الإدراك الحسي ، والتعلم ، وتحصيل العلوم . فمن الممكن للإنسان إذا فقد بصره أن يتعلم اللغة ويحصل العلوم ، ولكنه إذا فقد سمعه تعذر عليه تعلم اللغة وتحصيل العلوم . ومما يدل على أهمية السمع في الإدراك وفي تعلم اللغة – وهي من أهم أدوات التفكير وتحصيل العلوم – أن القرآن ذكره وحده مع العقل للدلالة على العلاقة الوثيقة بينه وبين العقل .

« وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ »(١)

ولهذه العلاقة الوثيقة بين السمع والعقل فإن القرآن يذكر في كثير من الآيات السمع بمعنى الفهم والتدبر والتعقل .

« رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا »(٢)

« إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ »(٣)

« وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ .. »(٤)

« وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ

---

(١) الملك : ١٠ .
(٢) آل عمران : ١٩٣ .
(٣) النور : ٥١ .
(٤) الجن : ١٣ .

ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ »[1]

«.. وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ »[2]

وثانياً ، إن حاسة السمع تعمل عقب الولادة مباشرة حيث يستطيع الوليد أن يسمع الأصوات عقب ولادته مباشرة ، بينما يحتاج الوليد إلى فترة من الزمن لكي يستطيع أن يرى الأشياء بوضوح[3] وثالثاً ، إن حاسة السمع تؤدي وظيفتها باستمرار دون توقف ، بينما حاسة البصر قد تتوقف عن أداء وظيفتها إذا أغمض الإنسان عينيه ، أو إذا نام . ويستطيع الصوت الشديد أن يوقظ الإنسان من نومه . ولذلك فقد ذكر الله تعالى في قصة أهل الكهف أنه ضرب على آذانهم حتى يستغرقوا في النوم فلا يوقظهم صوت :

« فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا »[4]

ورابعاً ، إن حاسة السمع تسمع في كل الأوقات سواء في الضوء أو في الظلام ، بينما حاسة البصر لا ترى إلا في الضوء[5] .

ويذكر القرآن السمع مفرداً ، بينما يذكر الأبصار في معظم الآيات في صيغة الجمع ، وذلك من أدلة الإعجاز في أسلوب القرآن ، حيث أن حاسة السمع تستقبل الأصوات الصادرة من جميع الجهات ، بينما العين لا ترى إلا إذا

---

(١) المائدة : ٨٣ .

(٢) الأعراف : ١٠٠ .

(٣) بينت البحوث الفسيولوجية الحديثة أن الطفل الحديث الولادة يستجيب للأصوات العالية ، ولكنه لا يستجيب للأصوات الخافتة الضعيفة . وبينت هذه البحوث ايضاً ايضاً ان الصور لا تبدو في عيني الطفل الحديث الولادة واضحة جلية حتى الشهر السادس إذ أن نمو التكوين الشبكي لا يتم إلا في نهاية الشهور الستة الأولى بعد الميلاد . وسنتعرض لهذا الموضوع فيما بعد عند كلامنا على النمو في القرآن وذلك في الفصل التاسع الخاص بالشخصية .

(٤) الكهف : ١١ .

(٥) محمد متولي الشعراوي : معجزة القرآن ، جـ ١ ، القاهرة : كتاب اليوم ، ١٩٨٠ ، ص ٩٥ – ٩٨ .

اتجه الإنسان ببصره نحو الشيء الذي يريد أن يراه[1] . وإذا حدث صوت في مكان يجتمع فيه جمع من الناس فإنهم جميعاً يسمعون نفس الصوت تقريباً ، بينما هم يرون الشيء الواحد من زوايا مختلفة ، وبذلك لا تكون رؤيتهم للشيء الواحد متماثلة تماماً . كما أنهم قد يرون في نفس الوقت أشياء مختلفة تبعاً للجهة التي ينظرون إليها . وفضلاً عن ذلك ، فنحن إذا سمعنا صوتاً صادراً من مكان يقع أمامنا مباشرة ، فإن الموجات الصوتية تصل إلى الأذنين في وقت واحد ، كما أن شدة تأثيرها على طبلتي الأذنين يكون متماثلاً . أما إذا نظرنا إلى شيء ما موضوع أمامنا فإن الصورة التي تنطبع على شبكية العين اليمنى تختلف عن الصورة التي تنطبع على شبكية العين اليسرى . فالعين اليمنى ترى الشيء من جانبه الأيمن ، بينما ترى العين اليسرى الشيء من جانبه الأيسر[2] .

الحواس الجلدية :

بينت الدراسات الفسيولوجية الحديثة أنه توجد في بشرة الإنسان خلايا حسية كثيرة مختلفة الشكل ، وهي متخصصة لاستقبال أنواع معينة من الإحساسات . فبعضها يحس بالحرارة ، وبعضها يحس بالبرودة ، وبعضها يحس باللمس والضغط ، وبعضها يحس بالألم . وقد أشار القرآن إلى وجود أعضاء الحس الخاصة بالإحساس بالألم في بشرة الإنسان ، وذلك في قوله تعالى :

« إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَـٰهُمْ

---

(١) محمد اسماعيل ابراهيم : القرآن وإعجازه العلمي . القاهرة : دار الفكر العربي ، ١٩٧٧ ، ص ١٠٩ – ١١١ ؛ محمد متولي الشعراوي : مرجع سابق ، ص ٩٥ – ٩٨ .

(٢) محمد عثمان نجاتي : مرجع سابق ، ص ٣٠٠ – ٣٠٢ . إذا نظرت إلى شيء أمامك مباشرة فإنك تستطيع أن تلاحظ الفرق فيما تراه العينان من هذا الشيء إذا ما وضعت يدك على عينك اليمنى ، ثم وضعتها بعد ذلك على عينك اليسرى ، فإنك سوف تلاحظ أن الشيء الذي تراه يتحرك يساراً ويميناً ، وذلك لأنك حينما تضع يدك على عينك اليمنى فإنك ترى الجانب الأيسر من هذا الشيء ، ثم حينما تضع يدك على عينك اليسرى يختفي الجانب الأيسر ، وترى الجانب الأيمن من هذا الشيء . ولذلك يبدو هذا الشيء كأنه يتحرك يساراً ويميناً . أما الصوت الصادر من جهة تقع أمامك مباشرة فإنهما يؤثران على أذنيك في وقت واحد . أما إذا كان الصوت صادراً من جهة تقع على يمينك أو يسارك ، فإن الموجات الصوتية تصل إلى الأذن التي تكون في ناحية مصدر الصوت قبل وصولها إلى الأذن الأخرى ، غير أن الفارق الزمني صغير جداً لا يلاحظ .

جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا »[1]

وتشير هذه الآية إلى وجود الخلايا الحسية المتخصصة في الإحساس بالألم في الجلد ، كما بينت الدراسات الفسيولوجية الحديثة . فإذا احترق الجلد وزالت هذه الخلايا انتفى الإحساس بالالم ، ولذلك يبدل الله تعالى الكافرين جلوداً جديدة بخلايا حسية جديدة لكي يستمر إحساسهم بالألم .

وأشار القرآن أيضاً إلى حاسة اللمس كأداة يستعين بها الإنسان لتحسس الأشياء للتعرف عليها .

« وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ »[2]

الإدراك الحسي الخارج عن نطاق الحواس :

هناك نوع آخر من الإدراك الحسي غير العادي ، وهو الذي يسميه علماء النفس بالإدراك الحسي الخارج عن نطاق الحواس[3] ، مثل الاستشفاف وهو رؤية الأشياء أو الأحداث البعيدة الخارجة عن مجال حاسة الإبصار ، والتخاطر وهو إدراك خواطر وأفكار شخص آخر يكون أيضاً في الغالب في مكان بعيد ، والاستهتاف وهو سماع نداء أو حديث من مكان بعيد خارج عن مجال حاسة السمع . وقد اهتم بعض علماء النفس في العصر الحديث بدراسة هذه الظواهر ، وأجروا عليها كثيراً من التجارب ، غير أن النتائج التي توصلوا إليها لم تكن من الدقة والثبات بحيث تمدنا بفهم واضح لهذه الظواهر .

وهذا النوع من الإدراك الحسي الخارج عن نطاق الحواس لا يلاحظ عند جميع الناس ، ولكنه يحدث فقط لبعض الأشخاص الذين يتمتعون باستعداد خاص ، قد يكون عبارة عن شفافية روحية تمدهم بقوة إدراكية خارقة للعادة

---

(١) النساء : ٥٦ .

(٢) الأنعام : ٧ .

(٣) Extrasensory Perception .

تمكنهم من تجاوز حدود المكان ليدركوا أشياء وأحداثاً بعيدة عنهم ، أو محجوبة عنهم بحواجز المكان . وقد ذكر القرآن مثالاً لهذا النوع من الإدراك الحسي غير العادي حدث ليعقوب عليه السلام حينما شم ريح ابنه يوسف عليه السلام حينما تحركت القافلة التي تحمل قميصه من أرض مصر بعيداً عن المكان الذي يوجد فيه يعقوب عليه السلام بمسيرة عدة أيام .

« وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ »[1]

إن قيام يعقوب عليه السلام بشم رائحة يوسف عليه السلام من هذا المكان البعيد الذي لا تقطعه الإبل إلا بعد مسيرة بضعة ايام ليشير إشارة واضحة إلى ظاهرة الإدراك الحسي الخارج عن نطاق الحواس .

ومن معجزات عيسى عليه السلام التي أخبر بها القرآن أنه كان يخبر الناس بما يأكلون في بيوتهم من طعام ، وما يدخرون فيها من أشياء .

« .. وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ .. »[2]

ومن المحتمل أن تكون هذه المعجزة نوعاً من الاستشفاف الذي خص الله تعالى به رسوله عيسى عليه السلام ، فمكنه به من إدراك أشياء غير منظورة وخارجة عن نطاق مجاله البصري . ومن المحتمل أيضاً أن يكون ذلك نوعاً من الإلهام الإلهي .

وتوجد في كتب السنة وتاريخ الصحابة والتصوف نماذج من الإدراك الحسي الخارج عن نطاق الحواس والذي يسميه المتصوفون بالكشف . ويروي مسلم عن الرسول صلوات الله عليه وسلامه أنه قال : « أتموا الركوع والسجود ، فوالله إني لأراكم من بعد ظهري إذا ما ركعتم وإذا ما سجدتم »[3] . ويروي البخاري

---

(١) يوسف : ٩٤ .

(٢) آل عمران : ٤٩ .

(٣) كتاب الصلاة ، جـ ٤ ، ص ١٥٠ . صحيح مسلم بشرح النووي . القاهرة . المطبعة المصرية ومكتبتها (د . ت) .

أن الرسول عليه الصلاة والسلام قال : « هل ترون قبلتي ها هنا ؟ فوالله ما يخفى عليّ خشوعكم ولا ركوعكم ، إني آراكم من وراء ظهري »[1] . إن رؤية النبي عليه الصلاة والسلام للصحابة من وراء ظهره وهم يركعون ويسجدون إنما هو أيضاً مثال للاستشفاف إذ استطاع النبي عليه الصلاة والسلام ، بسبب صفائه القلبي وشفافيته الروحية ، أن يرى أشياء لا تقع في مجال بصره . وفي الحديث أن النبي عليه الصلاة والسلام مر يوماً مع نفر من الصحابة بقبرين ببقيع الغرقد دفن فيهما رجلان حديثاً ، فتوقف وقال : « من دفنتم ههنا اليوم ؟ قالوا : فلاناً وفلاناً . قالوا يا نبي الله وما ذاك ؟ قال : أما أحدهما فكان لا يتنزه من البول ، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة . وأخذ جريدة رطبة فشقها ثم جعلها على القبرين . فقالوا : يا نبي الله ، لم فعلت هذا ؟ قال : ليخفف عنهما . قالوا يا رسول الله حتى متى يعذبان ؟ قال : غيب لا يعلمه إلا الله ، ولولا تمرغ قلوبكم ، وتزيدكم في الحديث لسمعتم ما أسمع »[2] . وقوله عليه الصلاة والسلام : « ولولا تمرغ قلوبكم ، وتزيدكم في الحديث لسمعتم ما أسمع » يشير إلى أن النبي عليه الصلاة والسلام قد سمع ما لم يستطع من معه من الصحابة أن يسمعوه . ويشير ذلك أيضاً إلى أنه من الممكن أن يكتسب الإنسان القدرة على « الاستماع » إذا صفى قلبه من شواغل الدنيا ، وامتنع عن اللغو في الحديث . وعن حنظلة الأُسَيْدي رضي الله عنه وكان من كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال قلت : « .. يا رسول الله ، نكون عندك تذكرنا بالنار والجنة كأنا رأي عين ، فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات ونسينا كثيراً . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : والذي نفسي بيده لو تدومون على ما تكونون عندي وفي الذكر لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم ، ولكن يا حنظلة ساعة وساعة ثلاث مرات » ، رواه مسلم والترمذي في الرقائق[3] . ويدل هذا الحديث

---

(١) كتاب الصلاة ، الحديث رقم ٤١٨ . فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، جـ ٣ ص ٧٤ . القاهرة : مكتبة الكليات الأزهرية ، ١٩٧٨ .

(٢) الحديث رقم ٢٦٢ من كتاب الترغيب والترهيب عن أبي أمامة (انظر سعيد حوى : تربيتنا الروحية ، ط ٢ . القاهرة : مكتبة وهبة ، ١٩٧٩ ، ص ١٥١) .

(٣) عبد الرحمن بن على المعروف بابن الديبع الشيبانى : تيسير الوصول إلى جامع الأصول من حديث الرسول صلى الله عليه وسلم . بيروت : دار المعرفة ، ١٩٧٧ ، جـ ١ ، ص ٣٢ . المعافسة : المعالجة والممارسة .

على إمكانية رؤية الصحابة للملائكة إذا داوموا على الحال التي يكونون فيها أثناء مصاحبتهم للنبي عليه الصلاة والسلام من صفاء القلب وشفافية الروح وذكر الله .

ويروى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه بينما كان يخطب خطبة الجمعة بالمدينة في أحد الأيام إذا به يتوقف عن الخطبة وينادي : « يا سارية بن حصن ! الجبل ... الجبل ! ومن استرعي الذئب ظلم » . فلما قضى الصلاة سأله عليّ رضي الله عنه عما نادى به . فقال : « وقع في خلدي أن المشركين هزموا إخواننا وركبوا أكتافهم ، وأنهم يمرون بجبل .. فإن عدلوا إليه قاتلوا من وجدوه وظفروا ، وإن جاوزوه هلكوا ، فخرج مني هذا الكلام » . ثم جاء البشير بعد شهر فقال إنهم سمعوا في ذلك اليوم وفي تلك الساعة حينما جاوزوا الجبل نداء يشبه صوت عمر يناديهم : « يا سارية بن حصن ! الجبل ... الجبل ... ! » . فرجعوا إليه ، ووفقهم الله وانتصروا »[1] .

الخداع البصري :

الخداع البصري هو إدراك بصري خاطيء لا ينطبق على حقيقة الشيء المرئي . وهناك بعض أنواع من الخداعات البصرية العامة بين الناس جميعاً ، فهم يدركونها جميعاً بطريقة متشابهة[2] . ومن أمثلة ذلك ما يحدث أحياناً حينما يرى الناس عن بعد سراباً فيظنونه ماءً . وقد ذكر القرآن السراب في تصويره البليغ لعدم جدوى ما يقوم به الكافرون من أعمال حسنة إذ ستكون يوم الحساب هباءً منثوراً كالسراب الذي يظنه الظمآن ماءً فإذا وصله لم يجده شيئاً .

« وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ »[3]

---

(١) عباس محمود العقاد : عبقرية عمر . بيروت : دار الكتاب العربي ، ١٩٦٩ ، ص ٢٤ .

(٢) محمد عثمان نجاتي : مرجع سابق ، ص ٢٨٦ ، ٢٨٧ .

(٣) النور : ٣٩ .

تأثير الدوافع والقيم في الانتباه والإدراك الحسي :

تؤثر دوافع الفرد وقيمه في انتباهه وإدراكه . وقد بينت ذلك نتائج كثير من الدراسات التجريبية الحديثة [١] . وقد أشار القرآن إلى هذه الحقيقة في أكثر من موضع حينما ذكر كيف كان الإيمان يجعل المؤمنين في حالة تهيؤ وانتباه إلى الاستماع إلى ما ينزل من آيات القرآن فيدركونها إدراكاً واعياً ، ويفهمونها فهماً دقيقاً ، بينما كانت هذه الآيات نفسها لا تحدث لدى المشركين نفس التأثير ، وإنما كانوا في غفلة عن سماعها وإدراكها وفهمها . وفيما يلي أمثلة مما قاله القرآن في وصف هذه الحالة من الغفلة عن الإدراك بسبب الشرك وعدم الإيمان بالله مما عطل حواس المشركين عن أداء وظيفتها :

« وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ » [٢]

« قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ » [٣]

« أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ » [٤]

« أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ » [٥]

« مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ

---

(١) محمد عثمان نجاتي : مرجع سابق ، ص ٢٨٩ ـ ٢٩٣ .

(٢) الأعراف : ١٧٩ .

(٣) فصلت : ٤٤ . قال ابن كثير في تفسير (ينادون من مكان بعيد) : « قال مجاهد يعني بعيد من قلوبهم . قال ابن جرير معناه كأن من يخاطبهم يناديهم من مكان بعيد لا يفهمون ما يقول » . تفسير ابن كثير ، جـ ٤ ، ص ١٠٣ .

(٤) محمد : ٢٣ .

(٥) الزخرف : ٤٠ .

وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ۝ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ »[1]

« وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ .. »[2]

« أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ »

« إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ۝ وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ »[4]

ومن مظاهر تأثير الدوافع على الإدراك أيضاً ما يحدث في الإدراك من تحريف وتشويه لحقيقة الشيء . فقد يرى الإنسان الشيء الحسن قبيحاً ، وقد يرى الشيء القبيح حسناً . وقد أشار القرآن إلى ما تحدثه الدوافع والميول والأهواء من تحريف في الإدراك .

« أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا .. »[5]

« أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم »[6]

✔ وقد بينت دراسات التحليل النفسي أن الإنسان يميل إلى عدم إدراك الأشياء التي تقلقه وتزعجه ، والأمور التي تتعارض مع رغباته وأهوائه . ولا شك أن

---

(١) البقرة : ١٧ ، ١٨ .
(٢) الأنعام : ٣٩ .
(٣) الجاثية : ٢٣ .
(٤) النمل : ٨٠ ، ٨١ .
(٥) فاطر : ٨ .
(٦) محمد : ١٤ .

مشركي قريش وكثيراً من اليهود والنصارى لم يكونوا راضين عن الدين الجديد الذي جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام لأن في انتشاره تهديداً لسلطتهم ونفوذهم . وإن كراهيتهم لهذا الدين الجديد جعلتهم غير متهيئين نفسياً للاستماع إلى القرآن استماع تدبر وتفهم ، كما جعلهم غير مستعدين عقلياً إلى إدراك معانيه ، وتصديق ما جاء به من الحق .

الفصل الخامس

التعلّم في القرآن

من فضل الله تعالى على الإنسان أنه زوده كذلك – بالإضافة إلى نعمة الإدراك الحسي والتفكير – باستعداد فطري للتعلم واكتساب المعرفة والعلوم والمهارات والصناعات مما يزيد من قدرته على تحمل مسؤولية الحياة على الأرض وعمارتها ، ومما يمكنه من تنمية قدراته ومهاراته بما يكفل له بلوغ ما شاء الله تعالى له من الكمال الإنساني .

مصادر العلم :

ويكتسب الإنسان العلم أو المعرفة من مصدرين رئيسيين : مصدر إلهي ، ومصدر بشري . وهذان النوعان من العلم متكاملان ، ويرجعان أساساً إلى الله سبحانه وتعالى الذي خلق الإنسان ، وأمدّه بأجهزة وأدوات للإدراك واكتساب العلم[1] . ونعني بالعلم الصادر من مصدر إلهي ذلك النوع من العلم الذي يأتينا مباشرة عن الله سبحانه وتعالى عن طريق الوحي أو الإلهام أو الرؤيا الصادقة . ونعني بالعلم الصادر من مصدر بشري ذلك النوع من العلم الذي يتعلمه الإنسان من خبراته الشخصية في الحياة ، ومن اجتهاده الخاص في الاستطلاع والملاحظة ومحاولة حل ما يجابهه من مشكلات عن طريق المحاولة والخطأ ؛ أو عن طريق التربية والتعليم من والديه ومن المؤسسات التعليمية ، أو عن طريق البحث العلمي . غير أن هذا العلم الذي نحصل عليه نتيجة اجتهادنا البشري ، هو أيضاً ، في الحقيقة ، مستمد من الله تعالى ، فهو جلّ شأنه الذي يمدنا بأدوات الإدراك التي نحصّل بها العلم ، وهو الذي يهدينا إلى ارتياد المسالك الصحيحة للوصول إلى العلم ، وهو الذي يهدينا إلى اليقين بما نصل إليه من نتائج .

(١) عبد الفتاح جلال : من الأصول التربوية في الإسلام . المركز الدولي للتعليم الوظيفي للكبار في العالم العربي بجمهورية مصر العربية ، ١٩٧٧ ، ص ٩٤ .

وسوف نتناول فى هذا الفصل العلم الذى يتعلمه الإنسان باجتهاده البشرى ، مرجئين الكلام عن العلم الذى يتعلمه الإنسان من الله سبحانه وتعالى مباشرة عن طريق الوحى أو الإلهام أو الرؤيا الصادقة إلى الفصل التالى .

تعلم اللغة :

إن من أعظم النعم التي خص الله تعالى بها الإنسان ، وميزه بها على الحيوان هي قدرته على تعلم اللغة . فاللغة هي آداة الإنسان الرئيسية في التفكير واكتساب المعرفة وتحصيل العلوم . فاللغة ، باعتبارها رموزاً للمفاهيم ، قد مكنت الإنسان من تناول جميع المفاهيم في تفكيره بطريقة رمزية ، مما ساعده على أن يحقق ما حققه من تقدم هائل في اكتساب المعرفة وتحصيل العلوم والصناعات المختلفة .

وتستطيع الحيوانات الثديية أن تكون المفاهيم . فقد بينت دراسات علماء النفس المحدثين أن الحيوانات الثديية تستطيع أن تستجيب استجابة معينة لشكل المثلث فقط من بين مجموعة من الأشكال الهندسية الأخرى المختلفة ، مما يدل على أن الحيوان استطاع أن يكون مفهوم « المثلث » . غير أن الحيوان لا يستطيع أن يتعلم « كلمة » ترمز إلى مفهوم المثلث . والأطفال الصغار قبل تعلمهم اللغة يستطيعون ، مثل الحيوان ، أن يكونوا مفاهيم قبل أن يتعلموا كلمات ترمز إليها[1] . ولكن حينما يبدأ الطفل في تعلم اللغة فإنه سرعان ما يكون لنفسه حصيلة لغوية تمكنه من تناول المفاهيم المختلفة بسهولة في تفكيره بما يتجاوز حدود المكان والزمان ، فتزيد بذلك قدرته على التفكير في الماضي والمستقبل ، وتعلم أشياء جديدة ، واكتشاف العلاقات بين الأشياء ، واستنباط المبادئ والقوانين ، والاختراع والابتكار .

تعلم آدم للغة :

ولما كان للغة هذا القدر العظيم من الأهمية في حياة الإنسان ، وفي تمكينه من التقدم المستمر في تعلمه وتفكيره ، فقد كان أول شيء علمه الله تعالى لآدم عليه السلام هو أسماء جميع الأشياء :

---

(١) محمد عثمان نجاتي : مرجع سابق ، ص ٢٥٨ .

« وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ »[1]

وتعلم أسماء الأشياء يعني تعلم «كلمات» ترمز إلى مفاهيم أو معانٍ كلية. فنحن حينما نطلق اسم «حصان» على مجموعة معينة من الحيوانات، فإننا نستخدم رمزاً لغوياً يدل على مفهوم أو معنى كلي ينطبق على جميع الأحصنة الأخرى. وعلى ذلك فإننا نفهم من قوله تعالى: «وعلم آدمَ الأسماءَ كلَّها» أنه علمه اللغة التي يسمي بها الأشياء كلها، أي علمه الأسماء التي ترمز إلى مفاهيم.

وتعلم «اسم» يرمز إلى مفهوم معين يتضمن معرفة الصفات والخصائص التي يشترك فيها جميع أفراد النوع الذي يشمله هذا المفهوم. فنحن حينما نتعلم استخدام كلمة «حصان» لنشير بها إلى جميع الأحصنة التي نراها، فإن ذلك يتضمن أننا قد تعلمنا من قبل أن جميع الأحصنة التي شاهدناها تشترك في صفات معينة. ولذلك فإننا نفهم أيضاً من قوله تعالى: «وعلم آدم الأسماء كلها» أنه تعالى قد علمه أيضاً صفات هذه الأشياء وخواصها وأفعالها[2].

وعملية التعلم هذه التي مرّ بها آدم أبو البشرية عليه السلام إنما يمر بها أيضاً جميع أفراد ذريته من بعده. فالإنسان يلاحظ منذ طفولته أن بعض الأشياء تتشابه في بعض الخصائص، وتختلف عن غيرها في بعض الخصائص الأخرى. ولا يستطيع الإنسان أن يدرك كل هذه الأشياء الكثيرة التي حوله وأن يستجيب

---

(١) البقرة: ٣١ – ٣٣.

(٢) يقول ابن كثير في تفسير ذلك: «.. علمه أسماء الأشياء كلها، ذواتها وصفاتها وأفعالها». تفسير ابن كثير، جـ ١، ص ٧٢ – ٧٥.

لها باعتبار أن كلا منها مستقل عن الآخر ، بل إنه يميل الى تبسيط عملية إدراكه لهذه الأشياء الكثيرة التي حوله وذلك بتجميع الأشياء المتشابهة في بعض الخصائص في مجموعة أو نوع معين ويكوّن لها مفهوماً معيناً ، ويطلق عليها اسماً معيناً ، ويستجيب لها جميعاً استجابة معينة . وهكذا يقوم الإنسان بتصنيف الأشياء لتقليل الكثرة والتعقيد في الأشياء التي حوله ، وذلك بتبسيطها عن طريق تكوين « مفهوم » يمثل عدة أشياء كثيرة ، وتكوين « اسم » يرمز لهذا المفهوم . وقد ساعدت قدرة الإنسان على تعلم اللغة على سرعة تكوينه للمفاهيم ، وعلى استخدامها في عملية التفكير ، وفي تعلم معلومات جديدة[1] . فباستخدام المفاهيم في التفكير ، وباستخدام الكلمات كرموز لهذه المفاهيم استطاع الإنسان أن يتناول جميع الأشياء في تفكيره بطريقة رمزية ، كما استطاع أن يقوم في تفكيره بعملية التحليل والتركيب ، والمقارنة والتمييز ، واكتشاف العلاقات ، واستخلاص المبادئ والقوانين ، مما ساعد على سرعة تطور البحث العلمي وتقدمه .

وللتنويه بأهمية تعلم اللغة في حياة الإنسان فإن أول سورة نزلت من القرآن الكريم كانت تحث على القراءة ، وتشير إلى فضل الله تعالى على الإنسان إذ أوجد في طبيعته القدرة على تعلم اللغة ، وتعلم القراءة والكتابة والعلوم والصناعات المختلفة ، والهدى والإيمان ، وما لم يكن يعلم الإنسان من قبل أن يهديه الله تعالى إلى تعلم ما وصل إليه من علم . قال الله جلّ شأنه :

« ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ »[2]

ونوّه القرآن أيضاً بتميز الإنسان عن غيره من المخلوقات بالقدرة على تعلم اللغة واستخدامها في الإبانة عما في نفسه من أفكار .

« خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ ۝ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ »[3]

---

(١) محمد عثمان نجاتي : مرجع سابق ، ص ٢٥٨ .

(٢) العلق : ١ – ٥ .

(٣) الرحمن : ٢ ، ٣ .

تعلم إرادة الاختيار واتخاذ القرار :

وأراد الله سبحانه وتعالى أيضاً أن يعلم أبوينا آدم وحواء عليهما السلام بعض العادات السلوكية المفيدة في حياتهما ، والتي تلائم طبيعة تكوينهما الإنساني من مادة وروح ، وما قد ينشأ عنهما من صراع بين مطالب كل من البدن والروح . فقد أرادت مشيئة الله تعالى أن يعلمهما إرادة الاختيار واتخاذ القرار ، وتحمل مسؤولية ما يقومان به من اختيارات ، وما يتخذانه من قرارات ، وذلك بأن نهاهما عن الاقتراب من الشجرة .

« وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ۝ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ »(١)

ومن الواضح أن مثل هذا التعلم كان ضرورياً لتدريب أبوينا آدم وحواء عليهما السلام وتهيئتهما لحياتهما فيما بعد على الأرض ، وهو أمر كان مقدراً لهما في علم الله تعالى . فهما في حياتهما على الأرض سيجابهان كثيراً من المواقف التي تتطلب منهما أن يتخذا منها موقفاً ، وأن يصدرا فيها حكماً ، وأن يقوما ازاءها بالاختيار بين بدائل مختلفة ، وعليهما أن يتحملا مسؤولية اختياراتهما وقراراتهما .

طرق التعلم في القرآن

يتعلم الإنسان بطرق مختلفة . فقد يتعلم عن طريق التقليد . فالطفل عادة يقلد والديه ويتعلم منهما كثيراً من العادات وأنماط السلوك . ويتعلم الإنسان أيضاً عن طريق التجربة العملية أو المحاولة والخطأ كثيراً من الحلول المفيدة

---

(١) البقرة : ٣٥ – ٣٧ .

لمشكلات حياته ، ومما ينفعه في أمور معاشه . وقد يتعلم الإنسان أيضاً عن طريق التفكير والاستدلال العقلي .

التقليد :

يتعلم الإنسان كثيراً من سلوكه وعاداته في المرحلة المبكرة من حياته عن طريق تقليد والديه وإخوته . فهو ، مثلاً ، يبدأ تعلمه للغة بمحاولة تقليد والديه وإخوته في النطق ببعض المقاطع الصوتية التي يكررونها أمامه عدة مرات . كما يبدأ تعلمه المشي بمحاولة تقليد والديه وإخوته فيما يقومون به من اعتدال القامة ، وحركات القدمين والساقين . وهكذا يتعلم الإنسان كثيراً من عاداته وسلوكه عن طريق تقليد أفراد أسرته .

وقد ذكر القرآن مثالاً يبين كيف يتعلم الإنسان عن طريق التقليد ، وذلك حينما قتل قابيل أخاه هابيل ولم يعرف كيف يتصرف في جثة أخيه ، فبعث الله تعالى له غراباً ينبش في الأرض ليدفن غراباً ميتاً ، فتعلم منه قابيل كيف يواري جثة أخيه .

﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴾ (١)

ولما كان الإنسان يميل بطبيعته إلى التقليد ، ويتعلم كثيراً من سلوكه عن طريق التقليد ، كانت للقدوة الحسنة أهمية كبيرة في التربية والتعليم . وقد كان النبي عليه الصلاة والسلام قدوة حسنة للصحابة رضي الله عنهم ، يتعلمون منه كيف يؤدون العبادات . فكانوا يرونه ، مثلاً ، وهو يتوضأ ، وهو يصلي ، وهو يقوم بشعائر الحج ، وكانوا يتعلمون منه كيف يقومون بهذه العبادات عن طريق تقليده والاقتداء به . وعن أبي حازم رضي الله عنه أن النبي عليه الصلاة والسلام

---

(١) المائدة : ٣١ .

صلى مرة على المنبر ، ولما انتهى من صلاته أقبل على الناس فقال : « يا أيها الناس إني إنما صنعت هذا لتأتموا بي ولتعلّموا صلاتي »[1] . وقد كان عليه الصلاة والسلام قدوة حسنة للصحابة رضي الله عنهم ، يقتدون به ، ويتعلمون منه ، ليس فقط شعائر العبادات ، وإنما كانوا يتعلمون منه كذلك حسن السلوك ، ومكارم الاخلاق ، وآداب التعامل الإنساني على وجه عام . وقد أوصانا القرآن بالاقتداء بالرسول عليه الصلاة والسلام والتعلم منه .

« لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا »[2]

وطالب القرآن المسلمين بالاقتداء بابراهيم عليه السلام والذين معه في تبرُّئهم من قومهم المشركين ، ودعاهم أن يكفوا مثله عن ولائهم لأقربائهم من المشركين .

« قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ .. »[3]

« لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ »[4]

وطالب القرآن النبي عليه الصلاة والسلام بأن يقتدي بالأنبياء والرسل السابقين فيما هداهم الله تعالى إليه من عقيدة التوحيد وفضائل الأعمال .

---

(١) الحديث رقم ٤٠٨ . مختصر صحيح مسلم للحافظ المنذري .

(٢) الأحزاب : ٢١ .

(٣) الممتحنة : ٤ .

(٤) الممتحنة : ٦ .

« أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ .. »[1]

ويتعلم الإنسان عن طريق القدوة الحسنة عاداته الحسنة وأخلاقه الكريمة ، كما يتعلم عن طريق القدوة السيئة عاداته السيئة وأخلاقه القبيحة . وقد سبق أن أشرنا أثناء كلامنا عن جمود التفكير في الفصل الرابع الخاص بالتفكير في القرآن الى أن الاقتداء بالآباء في عباداتهم ، والتمسك بآرائهم وتقاليدهم كان من العقبات التي عانى منها الرسل والأنبياء في جميع العصور وحالت دون قبول المشركين لدعوة التوحيد .

التجربة العملية والمحاولة والخطأ :

ويتعلم الإنسان أيضاً عن طريق التجربة العملية في مواجهة مشكلات الحياة المختلفة ، ومحاولة حلها والتغلب عليها . ويقابل الإنسان دائماً في حياته مواقف جديدة لم يتعلم من قبل كيف يستجيب لها ، أو كيف يتصرف فيها . ويتوافق الإنسان دائماً لمثل هذه المواقف الجديدة بأن يحاول أن يستجيب لها باستجابات مختلفة ، فيخطئ في بعضها ، وقد يصيب أحياناً . وهكذا يتعلم الإنسان دائماً ، عن طريق ما يسميه علماء النفس المحدثون المحاولة والخطأ (أو الإشراط الإجرائى) ، استجابات جديدة للمواقف الجديدة ، وحلولاً لما يقابله من مشكلات فى حياته العملية .

ولقد حثَّ القرآن الإنسان في كثير من آياته على السير في الأرض ، والملاحظة والتفكير في آيات الله في الكون . وقد ذكرنا كثيراً من هذه الآيات من قبل في الفصل السابق الخاص بالتفكير في القرآن . ولا شك أن اهتمام القرآن بدعوة الناس إلى الملاحظة والتفكير في الكون وما فيه من مخلوقات إنما يشير بوضوح إلى اهتمام القرآن بدعوة الناس إلى التعلم عن طريق ملاحظتهم للأشياء وتجربتهم العملية في الحياة ، وعن طريق تفاعلهم مع الكون وما فيه من مخلوقات وأحداث ،

---

(١) الأنعام : ٩٠ .

سواء كان ذلك عن طريق التجربة العملية والمحاولة والخطأ (أو الإشراط الإجرائى) ، أو عن طريق التفكير وهو ما سوف نتناوله فيما بعد .

وقد أشار النبي عليه صلوات الله وسلامه إلى أهمية التعلم من التجربة العملية في الحياة . فعن طلحة بن عبد الله رضي الله عنه قال : (مررت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوم على رؤوس النخل فقال : « ما يصنع هؤلاء ؟ » ، فقالوا : يلقحونه ، يجعلون الذكر في الأنثى فيتلقح ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما أظن يغني ذلك شيئاً » ، قال : فأُخبروا بذلك فتركوه ، فأُخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك ، فقال : « إن كان ينفعهم ذلك فليصنعوه ، فإني إنما ظننت ظناً ، فلا تؤاخذوني بالظن ، ولكن إذا حدثتكم عن الله شيئاً فخذوا به ، فإني لن أكذب على الله عز وجل »)[1] . وفي رواية أخرى قال : « أنتم أعلم بأمور دنياكم »[2] . وقول الرسول عليه صلوات الله وسلامه : « إن كان ينفعهم ذلك فليصنعوه » ، وقوله كذلك : « أنتم أعلم بأمور دنياكم » إنما يشير إلى تعلم الإنسان عن طريق التجربة العملية استجابات جديدة لما يقابله من مواقف جديدة ، وحلولاً لما يجابهه من مشكلات في حياته العملية . وإلى هذا النوع من التعلم عن طريق التجربة العملية أو المحاولة والخطأ يشير القرآن بقوله :

« يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ »[3]

ويقول القرطبي في تفسير « يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا » : « يعني أمر معاشهم ودنياهم : متى يزرعون ومتى يحصدون ، وكيف يغرسون وكيف يبنون »[4] . وقال ابن كثير في تفسير ذلك : « أي أكثر الناس ليس لهم علم

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الفضائل ،جـ ١٥ ، ص ١١٦ ، ١١٧ .
(٢) المرجع السابق ، ص ١١٨ .
(٣) الروم : ٧ .
(٤) تفسير القرطبي ، جـ ١٤ ، ص ٧ .

إلا بالدنيا وأكسابها وشؤونها وما فيها ، فهم حذاق أذكياء في تحصيلها ووجوه مكاسبها »[1] .

التفكير :

ويتعلم الإنسان أيضاً عن طريق التفكير . فحينما يفكر الإنسان في حل مشكلة معينة فإنه يقوم في الواقع بنوع من المحاولة والخطأ ذهنياً . فهو يستعرض في ذهنه الحلول المختلفة للمشكلة ، ويرفض الحلول الخاطئة أو غير الملائمة ، ثم يختار الحل الذي يراه ملائماً وصحيحاً . فعن طريق التفكير يتعلم الإنسان حلولاً جديدة لمشكلاته ، ويكتشف علاقات بين الأشياء والأحداث ، ويستنبط مباديء ونظريات جديدة ، ويهتدي الى ابتكارات واختراعات جديدة . ولذلك يسمى بعض علماء النفس المحدثين عملية التفكير « بعملية التعلم العليا » .

والمناقشة والحوار واستشارة أهل الرأي من العوامل التي تساعد على توضيح التفكير مما يؤدي إلى الاهتداء إلى الحق ، والوصول إلى حلول سليمة للمشكلات التي تبحث . وقد حثّ القرآن على الشورى ، ونوّه بفضل المؤمنين الذين يتشاورون في أمورهم بغية الوصول إلى الحق وتحقيق العدل في المجتمع .

« وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ »[2]

وطالب الله جل شأنه النبي عليه صلوات الله وسلامه أن يستشير أهل الرأي من الصحابة رضي الله عنهم :

« .. وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ .. »[3]

---

(١) تفسير ابن كثير ، جـ ٣ ، ص ٤٢٧ .

(٢) الشورى : ٣٨ .

(٣) آل عمران : ١٥٩ .

واستخدم القرآن أسلوب المناقشة والحوار مع المشركين ، وساق لهم الأدلة العقلية التي تثبت بطلان عبادتهم للأوثان بغية إثارة تفكيرهم في أمر آلهتهم ، وبهدف إقناعهم بوضاعتها وحقارتها وعجزها حتى يتضح لهم عدم جدارتها بالألوهية . ومن أمثلة ذلك :

« أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۝ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ۝ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ ۝ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ »(١)

وساق القرآن أيضاً كثيراً من الحجج والبراهين العقلية لإيقاظ العقل البشرى ودفعه إلى التفكير والتأمل فى ملكوت الله تعالى ، وتوجيهه إلى الاستدلال من بديع خلق الله على وجود الإله الخالق المبدع .

« أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ »(٢)

« أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ۝ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ »(٣)

---

(١) الأعراف : ١٩١ ـ ١٩٥ . (٢) الغاشية : ١٧ ـ ٢٠ . (٣) ق : ٦ ـ ١٠ .

وجادل القرآن المشركين ، وفند أباطيلهم ، وأقام عليهم الحجة على وحدانية الله تعالى .

« لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا . . »[1]

« مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ »[2]

ومن هذه الأمثلة القليلة التي ذكرناها من حوار القرآن وجدله مع المشركين والمعارضين للإسلام يتبين اهتمام القرآن بتنبيه العقل البشرى وتوجيهه إلى التفكير والتأمل لقبول الإسلام عن اقتناع عقلى ، واطمئنان قلبى .

مبادئ التعلم في القرآن

تتم عملية التعلم في يسر ونجاح إذا ما توافرت مبادئ معينة . وقد تتعثر عملية التعلم ، وقد تفشل إذا لم تتوافر هذه المبادئ . وإذا درسنا المنهج الذي اتبعه القرآن في دعوته لعقيدة التوحيد ، وفي تربيته للمؤمنين وغرس المبادئ والقيم الإسلامية في نفوسهم ، لاستطعنا أن نستخلص من هذا المنهج بعض المبادئ الهامة لعملية التعلم التي استخدمها القرآن في تغييره لسلوك المؤمنين ، وفي تعليمهم العقائد والقيم الإسلامية . وسنرى أن هذه المبادئ التي استخدمها القرآن في التربية الروحية للمؤمنين لم يكتشف علماء النفس عن أهميتها في عملية التعلم إلا أخيراً في أوائل القرن العشرين . وسنحاول فيما يلي أن نستعرض مبادئ التعلم في القرآن .

---

(١) الأنبياء : ٢٢ .

(٢) المؤمنون : ٩١ .

الدافع :

للدافع أهمية كبيرة في التعلم . فإذا توافر الدافع القوي للحصول على هدف معين ، وتوافرت الظروف المناسبة ، قام الإنسان ببذل الجهد الضرورى لتعلم الطرق الصحيحة للوصول إلى هذا الهدف . وإذا جابه الإنسان مشكلة ، وشعر بحاجة شديدة إلى حل هذه المشكلة ، فإنه يقوم في العادة بكثير من المحاولات لحل هذه المشكلة ، حتى ينتهـي به الأمر إلى تعلم الحل الصحيح لهذه المشكلة . وقد بينت كثير من الدراسات التجريبية التى أجريت حديثًا على الحيوان والإنسان أهمية الدافع في حدوث التعلم . وقد استخدم القرآن في تربيته الروحية للمسلمين أساليب مختلفة في إثارة دوافعهم إلى التعلم . فاستخدم الترغيب والترهيب ، واستخدم القصص للتشويق ، كما استعان بالأحداث الجارية الهامة التي تثير دوافع الناس وانفعالاتهم وتجعلهم متهيئين لتعلم العبرة من هذه الأحداث .

أ – إثارة الدافع بالترغيب والترهيب :

حينما يكون لدى الإنسان دافع قوي للحصول على هدف ما ، فإن الحصول على هذا الهدف الذي يشبع دافعه يعتبر ثواباً أو مكافأة تسبب الشعور باللذة ، أو السرور والرضـا . والفشل في الحصول على هذا الهدف يعتبر نوعاً من العقاب الذي يسبب له الشعور بالألم ، أو الضيق والكدر . والإنسان – وكذلك الحيوان – يميل بطبيعته إلى ما يسبب له اللذة ، ويتجنب ما يسبب له الألم . ولذلك كان الإنسان ميالاً بطبيعته إلى تعلم الاستجابات أو الأفعال التي تؤدي الى الحصول على الثواب ، وإلى تجنب الاستجابات أو الأفعال التي تؤدي الى الفشل أو العقاب . وقد أثبتت التجارب الكثيرة التي أجراها علماء النفس المحدثون هذه الحقيقة .

وقد اهتم القرآن في دعوته إلى الإيمان بعقيدة التوحيد بإثارة دوافع الناس بترغيبهم في الثواب الذي سيحظى به المؤمنون في نعيم الجنة ، وبترهيبهم من العقاب أو العذاب الذي سيلحق بالكافرين في نار جهنم . وآيات الترغيب التي تصف نعيم الجنة تبعث في المسلمين الأمل في الحصول على هذا النعيم ، وتدفعهم

إلى التمسك بالتقوى ، والإخلاص في أداء العبادات ، والعمل الصالح ، والجهاد في سبيل الله ، وعمل ما يرضي الله ورسوله ، آملين أن يكونوا من أهل الجنة . والآيات التي تصف عذاب جهنم تبعث فيهم الرهبة من هذا العذاب الأليم الذي ينتظر الكافرين والمنافقين والعاصين لأوامر الله تعالى ، ويدفعهم ذلك إلى الابتعاد عن ارتكاب الذنوب والمعاصي وكل ما يغضب الله ورسوله ، آملين أن ينجيهم الله من عذاب جهنم . وهكذا كان المسلمون متأثرين بدافعين قويين ، الرجاء فى رحمة الله يدفعهم إلى القيام بالعبادات والتكاليف وكل ما يأمرهم به الشرع ، والخوف من عذاب الله يدفعهم إلى تجنب القيام بالذنوب والمعاصى وكل ما ينهاهم عنه الشرع . وشعور الإنسان بهذين الدافعين القويين المتكاملين والمتفقين فى الغاية يجعلانه فى حالة استعداد تام وتهيؤ كامل للطاعة التامة لله والرسول ولتلبية كل ما يطلب منه من واجبات ومسؤوليات ، ولتعلّم كل ما يوجهه إليه الإسلام من نظام جديد للحياة ، وطريقة جديدة فى التفكير والسلوك ، ولتجنب كل ما ينهى عنه الله سبحانه وتعالى ورسوله صلوات الله عليه وسلامه .

ويلاحظ أن القرآن لا يعتمد فقط في إثارة الدافع لقبول الإسلام على تخويف الناس وترهيبهم من العذاب الأليم في نار جهنم ، وانما يعتمد أيضاً في نفس الوقت على ترغيبهم في الاستمتاع بنعيم الجنة . وذلك لأن استخدام الترهيب وحده ، أو الترغيب وحده قد لا يكون مفيداً الفائدة المرجوة في تعديل السلوك وتوجيهه . فاستخدام الترهيب وحده قد يؤدي إلى طغيان الرهبة على النفس فتيأس من رحمة الله ، واستخدام الترغيب وحده قد يؤدي الى استيلاء الأمل في رحمة الله على النفس مما قد يوكلها إلى الدعة والتهاون والغفلة ، فتتمنى على الله ما ليس لها[1] . وفي هذا المعنى قال النبي صلى الله عليه وسلم : « ليس الإيمان بالتمني ، ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل . إن قوماً ألهتهم أماني المغفرة حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم ، وقالوا نحسن الظن بالله ، وكذبوا ، لو أحسنوا الظن بالله لأحسنوا العمل له »[2] .

---

(١) محمد سعيد رمضان البوطي : منهج تربوي فريد في القرآن ، مجلة الوعي الإسلامي (الكويت) ، السنة السابعة ، العدد ٨١ ، اكتوبر ١٩٧١ ، ص

(٢) البهي الخولي : مرجع سابق ، ص ١٨٥ .

ولذلك ، فإن القرآن لا يعتمد على الترهيب فقط ، أو الترغيب فقط ، وإنما يعتمد على مزيج منهما : الخوف من عذاب الله ، والرجاء في رحمته وثوابه . وقد عبّر القرآن عن ذلك في وصف أصفياء الله من الأنبياء وعباده الصالحين فقال عنهم :

« .. إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ »(١)

« تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ »(٢)

وهذا المزيج من الخوف والرجاء كفيل بإثارة الدافع القوي لدى المسلمين لتعلم ما جاء به الإسلام من نظام جديد في الحياة ، وما تضمنه ذلك من تعلّم عقائد وقيم جديدة ، وأساليب جديدة في التفكير والسلوك . ومن أمثلة آيات الترغيب والترهيب التي تذكر النعيم الذي سيناله المؤمنون ، والعذاب الذي سيلحق بالكافرين في الحياة الآخرة :

« بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ »(٣)

« لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ۝ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ۝ لَٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ »(٤)

---

(١) الأنبياء : ٩٠ .

(٢) السجدة : ١٦ .

(٣) البقرة : ٨١ ، ٨٢ .

(٤) آل عمران : ١٩٦ ، ١٩٨ .

«إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا»(١)

«وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ۝ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ»(٢)

«إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۝ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَـٰتُ ٱلْعُلَىٰ»(٣)

«فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝ وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا مُعَـٰجِزِينَ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ»(٤)

«ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فِى جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا فَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ»(٥)

«وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ۝ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ۝ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ»(٦)

---

(١) النساء : ٥٦ ، ٥٧ .
(٢) المائدة : ٩ ، ١٠ .
(٣) طه : ٧٤ ، ٧٥ .
(٤) الحج : ٥٠ ، ٥١ .
(٥) الحج : ٥٦ ، ٥٧ .
(٦) الروم : ١٤ – ١٦ .

ولا تقتصر آيات الترغيب والترهيب في القرآن على ذكر النعيم الذي سيلقاه المؤمنون ، والعذاب الذي سيلحق بالكافرين في الحياة الآخرة فقط ، بل إنها تذكر أيضاً ما يناله المؤمنون من خير ، وما يلحق بالكافرين من ألم وعذاب في الدنيا أيضاً . ومن أمثلة الآيات التي تذكر ما يناله المؤمنون من خير في الحياة الدنيا :

« وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ »[1]

« فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا »[2]

ومن أمثلة الآيات التي تذكر ما يصيب الكافرين من عذاب في الحياة الدنيا :

« .. وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ »[3]

« وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ »[4]

وذكرت بعض الآيات الأخرى حدوث الثواب للمؤمنين ، ووقوع العذاب للكافرين في كل من الحياة الدنيا والحياة الآخرة معاً . ومن أمثلة ذلك :

---

(١) هود : ٥٢ .

(٢) نوح : ١٠ – ١٢ .

(٣) الرعد : ٣١ .

(٤) هود : ٩٤ .

« فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ »[1]

« لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ »[2]

ب – إثارة الدافع بالقصص :

إن للقصة تأثيراً تربوياً هاماً مما جعل المربين منذ قديم الزمان يستخدمونها فى تربية النشأ وتعليمهم المثل العليا ، والقيم الدينية والخلقية . فالقصة بما تصوره من أحداث ووقائع وشخصيات تشد الانتباه ، وتشوّق المستمعين إلى تتبع أحداثها ووقائعها ، وتبعث فيهم مختلف الانفعالات والمشاعر التى تجعلهم يشتركون فى أحداثها وجدانياً ، ويتأثرون بها عاطفياً ؛ فتصبح عقولهم ونفوسهم متقبلة لما تتضمنه من حكم ومواعظ وعبر ، ولما ترغبهم فيه من مثل عليا وقيم .

ولقد كان القصص من الوسائل الهامة التى استعان بها القرآن لإثارة الدافع للتعلم ، لما تثيره من تشويق ، ولما تستدعيه من انتباه . وكان القرآن يبث فى ثنايا القصص ما يريد أن يبلغهم من أخبار الأنبياء والرسل السابقين وتحذيرهم من سوء المصير الذى لحق بالكافرين من الأمم السابقة ، أو ما يريد أن يعلمهم من مبادئ الدين وأصول العقيدة ، أو من عبر وحكم .

« لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ .. »[3]

ولقد امتاز القصص القرآني ، بما هو معروف عن القرآن ، بجمال الأسلوب ، وبلاغة البيان ، وبالإيجاز في عرض جوانب معينة من وقائع وأحداث القصة التي تناسب الموضوع الذى تتناوله السورة بحيث ترد أحداث القصة منسجمة مع السياق العام لموضوعات السورة ، فتكون بذلك أوقع في تأثيرها النفسي ، وأعمق في تحريكها للمشاعر والوجدان ، وأقرب إلي إقناع العقل ، وتصديق القلب .

---

(١) آل عمران : ١٤٨ .

(٢) الرعد : ٣٤ .

(٣) يوسف : ١١١ .

ويلاحظ في بعض قصص القرآن أنه يبدأ أولاً بذكر ملخص القصة ، ثم يعرض بعد ذلك تفصيلات القصة من بدايتها إلى نهايتها ، كما هو واضح مثلاً في قصة « أصحاب الكهف » . وذكر ملخص القصة قبل سرد تفصيلاتها إنما يؤدي إلى تشويق المستمعين وإثارة انتباههم لتتبع تفصيلات القصة [١] .

ويلاحظ في بعض القصص الأخرى أنها تبدأ أولاً بذكر عاقبة القصة ومغزاها ، ثم تأتي بعد ذلك تفصيلات القصة ، كما هو ملاحظ في قصة موسى عليه السلام ، الواردة في سورة القصص . وذكر مغزى القصة أولاً يؤدي أيضاً إلى إثارة تشويق المستمعين وانتباههم لتتبع وقائع القصة لمعرفة كيف تحققت هذه الغاية [٢] .

جـ – الاستعانة بالأحداث الهامة :

ومن العوامل التي تساعد على إثارة الدافع والانتباه وقوع بعض الأحداث أو المشكلات الهامة التي تهز وجدان الناس وتثير اهتمامهم وتشغل بالهم . ويكون الناس عادة تحت تأثير هذه الأحداث الهامة التي تمر بهم في حالة تهيؤ واستعداد لتعلم العبرة المتضمنة في هذه الأحداث . وقد استعان القرآن بالأحداث الهامة التي كانت تمر بالمسلمين لتعليمهم بعض العبر المفيدة لهم في حياتهم . ومن الطبيعي أن يكون المسلمون في أوقات وقوع هذه الأحداث المثيرة لوجدانهم أكثر استعداداً ، وأكثر قبولاً لتعلم العبرة واستيعابها [٣] . ومن أمثلة ذلك ما حدث في غزوة حنين حينما أعجب المسلمون بكثرتهم وقوتهم واطمأنوا إلى أنهم سينتصرون على الكفار ونسوا أن النصر بمشيئة الله وحده ، فأراد الله تعالى أن يعلم المسلمين أن الكثرة لا تؤدي بالضرورة إلى النصر ، وإنما ينصر الله من يشاء من عباده الذين يعمر الإيمان والتقوى قلوبهم حتى ولو كانوا قلة [٤] .

---

(١) سيد قطب : التصوير الفنى فى القرآن ، ط ٣ . القاهرة : دار المعارف ، ١٩٧٥ ، ص ١٤٨ ، .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٤٩ .

(٣) محمد شديد : منهج القرآن في التربية . بيروت : مؤسسة الرسالة ، ١٩٧٩ ، ص ٢٧٧ .

(٤) عبد الفتاح جلال : مرجع سابق ، ص ١١٩ .

« لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ۝ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ »(١)

التكرار :

إن تكرار عرض آراء وأفكار معينة على الناس يؤدي عادة إلى استقرار هذه الآراء والأفكار وتثبيتها في أذهان الناس . وقد بينت دراسات علماء النفس المحدثين أهمية التكرار في عملية التعلم . وقد فطنت المؤسسات التجارية والصناعية إلى أهمية التكرار في تثبيت الفكرة في أذهان الناس ، فقاموا بإنفاق الأموال الطائلة على الإعلانات التجارية التي تقوم بتكرار عرض أفكار معينة على الناس بهدف التأثير في اتجاهاتهم لترويج سلعهم التجارية .

ونحن نجد في القرآن تكراراً لبعض الحقائق المتعلقة بالعقيدة والأمور الغيبية التي يريد القرآن أن يثبتها في الأذهان ، كعقيدة التوحيد ، وأن الله تعالى هو وحده مصدر جميع الأديان ، والإيمان بالبعث ، ويوم القيامة ، والحساب ، والثواب والعقاب في الحياة الآخرة . إن كثيراً من آيات القرآن يكرر هذه المعاني لتثبيتها في الأذهان . ومن أمثلة تكرار عقيدة التوحيد ما جاء في سورة النمل وهي سورة مكية – من تكرار عبارة : «أإله مع الله» خمس مرات حتى تثبت هذه العقيدة في الأذهان .

«أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ۝ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝

---

(١) التوبة : ٢٥ ، ٢٦ .

أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ »[1]

وتكررت الدعوة الى التوحيد وعبادة الله الواحد الأحد أربع مرات في سورة هود وهي مكية . فقد ذكر القرآن في هذه السورة ما قاله بعض الأنبياء السابقين لأقوامهم حينما كانوا يدعونهم إلى عقيدة التوحيد . فذكر ما قاله نوح عليه السلام لقومه :

« وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ .. »[2]

ثم ذكر القرآن ما قاله كل من هود وصالح وشعيب عليهم السلام إلى أقوامهم بصيغة واحدة تكررت ثلاث مرات في السورة :

« وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ .. »[3]

« وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ .. »[4]

« وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ .. »[5]

---

(١) النمل : ٦٠ـ٦٤ .
(٢) هود : ٢٥ ، ٢٦ .
(٣) هود : ٥٠ .
(٤) هود : ٦١ .
(٥) هود : ٨٤ .

كما تكررت عبارة « اعبدوا الله ما لكم من إله غيره » مرتين في سورة « المؤمنون » وهي مكية ، وذلك في الآيتين رقم ٢٣ و٣٢ .

ولقد جاء في القرآن أيضاً تكرار لقصص الأنبياء لكي يثبت في الأذهان حقيقة أن جميع الأديان من عند الله[١] . فهو سبحانه وتعالى الذي أرسل جميع أنبيائه إلى الناس في فترات التاريخ المختلفة لهدايتهم ودعوتهم للتوحيد وعدم الشرك بالله ، ولكي يبيّن أيضاً لكفار قريش المصير الذي لقيه من قبل من كذبوا الأنبياء ، ويحذرهم من المصير الذي ينتظرهم إذا ما هم كذبوا النبي صلى الله عليه وسلم . فنجد ، مثلاً ، في سورة القمر ، وهي مكية ، تكراراً لذكر العذاب الذي سيلقاه الكافرون ، ولإنذار الله تعالى لهم بهذا العذاب ، وذلك بهدف إثارة انتباه كفار قريش وتذكيرهم بالمصير الذي لاقاه الذين كذبوا أنبياءه من قبل ، وتحذيرهم من لقاء نفس هذا المصير إذا ما استمروا في تكذيبهم للنبي عليه صلوات الله وسلامه[٢] . فقد تكررت في هذه السورة الآية التالية ثلاث مرات :

« فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ »[٣]

كما تكررت الآية التالية أربع مرات في نفس السورة :

« وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ »[٤] .

ويلاحظ أيضاً في سورة المرسلات ، وهي أيضاً مكية ، أن عبارة : « ويل يومئذٍ للمكذبين » قد تكررت عشر مرات . وكانت هذه السورة تذكر كثيراً من النعم التي أنعم الله تعالى بها على الناس ، وكثيراً من النقم التي أنزلها الله تعالى

---

(١) سيد قطب : مرجع سابق ، ص ١٠٩ .

(٢) انظر أيضاً في هذا الموضوع : عبد الوهاب حمودة : القرآن وعلم النفس . القاهرة : دار القلم ، ١٩٦٢ ، ص ٩٥ ، ٩٦ .

(٣) القمر : ١٦ ، ٢١ ، ٣٠ .

(٤) القمر : ١٧ ، ٢٢ ، ٣٢ ، ٤٠ .

بهم ،فكانت هذه العبارة تأتي بعد كل نعمة يذكرهم الله بها ، وبعد كل نقمة يخوفهم منها ، وذلك ليثير انتباههم إلى هذه النعم والنقم ليكون ذلك رادعاً لهم عن التمادي في التكذيب ، وزاجراً لهم عن الاستمرار في الكفر . هذا فضلاً عما في تكرار جملة واحدة عدة مرات خلال الكلام من تأثير خطابي ، وهو أمر « مألوف للعرب معهود في خطبهم وأشعارهم »[1] .

وفي القرآن أيضاً آيات كثيرة تتكلم عن البعث ، ويوم القيامة ، ويوم الحساب ، ونعيم الجنة ، وعذاب جهنم ، وخلق آدم وحواء ، وعداء إبليس لهما . ويهدف القرآن من تكراره لذكر هذه الأمور الغيبية إلى استقرار الإيمان بها في النفوس ، وإلى تثبيت ما يبثه أثناء سرده لها من عقائد وعبر وعظات .

وليس تكرار القصص في القرآن تكراراً تاماً ، وإنما كان القرآن يذكر من القصة الأحداث التي تتفق مع سياق المعاني الواردة في السورة . وإذا كرر القرآن حلقة من القصة فإنه عادة ما يورد فيها شيئاً جديداً لم يذكره من قبل ، ويحدث في ألفاظها بعض التعديل ، وتقديم وتأخير مما تتطلبه العبرة المقصودة من ذكر القصة . فالقرآن لا يسرد قصص الأنبياء باعتبارها تاريخاً يراعي فيه الترتيب الزمني للوقائع ، وإنما هو يذكرها لما في أحداثها من عبر وعظات . ولذلك فهو يذكر من وقائع القصة ما يناسب العبرة التي يريد أن يبثها في الناس[2] .

ولا شك أيضاً في أن عرض بعض الأحداث أو الأفكار في صور أو صيغ مختلفة إنما يؤدي إلى إثارة الانتباه ، ويمنع من حدوث الملل الذي يمكن أن ينتاب الإنسان إذا ما عرضت عليه فكرة معينة عدة مرات في صورة واحدة لا تتغير . وقد بينت دراسات علماء النفس المحدثين والمتخصصين في الدعاية والإعلام أهمية تغيير الصيغة التي يُعبرَّ بها عن فكرة معينة لتجنب الملل ولإثارة الانتباه ، وهو أمر يراعيه الآن القائمون بالإعلان التجاري .

---

(١) عبد الوهاب حمّوده : مرجع سابق ، ص٩٦ ، ٩٧ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٠٣ ـ ١٠٥ .

والتكرار يثبت التعلم ، سواء كان ما يتعلمه الإنسان عادة حسنة ، أم عادة سيئة . فتكرار الناس للسلوك السيئ يثبته ويجعله عادة مستقرة يصعب التخلص منها إلا بمجهود كبير وإرادة قوية . ولهذا كان تكرار المشركين لعقائدهم وعباداتهم القديمة التي تعلموها عن آبائهم من عوامل استقرارها في سلوكهم بحيث لم يكن من السهل عليهم التخلص منها . وقد أشار القرآن في كثير من الآيات إلى ما لاقاه الأنبياء في جميع عصور التاريخ من صعوبة في إقناع المشركين بعقيدة التوحيد بسبب تمسكهم بعباداتهم القديمة التي نشأوا عليها . وقد سبق أن أشرنا إلى ذلك أثناء كلامنا عن أخطاء التفكير وجموده في الفصل الرابع الخاص بالتفكير في القرآن . وقد أشار القرآن إلى تأثير تكرار غفلة الإنسان عن الله سبحانه وتعالى ، وتكرار انغماسه في الكفر ، وارتكابه للذنوب والمعاصي ، فإن ذلك يجعل الإنسان غير متهيئ لقبول دعوة التوحيد بسهولة . وهذا ما عبر عنه القرآن في كثير من الآيات بفكرة « الطبع على القلوب » ، وقد سبق أن أشرنا إلى ذلك أيضاً أثناء كلامنا عن جمود التفكير في الفصل الرابع الخاص بالتفكير في القرآن .

ويعبر القرآن أيضاً عن فكرة استقرار العادات السيئة والمعاصي نتيجة للتكرار بحيث يغشى العقل ما يشبه الصدأ فيعوقه عن التمييز ، ويصعب على النفس الإقلاع عما اعتادت عليه من معاصٍ ، وذلك في قوله تعالى :

« كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ »[1]

وفي هذا المعنى قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت في قلبه نكتة سوداء . فإذا هو نزع واستغفر وتاب صقل قلبه .. وإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه ، وهو الران الذي ذكر الله : (كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون) »[2] . وفي خبر آخر : « الذنب على الذنب حتى يسود القلب فلا ترجى له الإنابة »[3] .

---

(١) المطففين : ١٤ .

(٢) رواه الترمذي . النكت : الأثر في الشيء ، وران على قلبه : أي غطى .

(٣) أبو القاسم الحسن بن محمد بن المفضل الراغب الأصفهاني : مرجع سابق ، ص ٩٧ .

الانتبـــاه :

إن الانتباه عامل هام في التعلم واكتساب المعرفة وتحصيل العلم . فإذا لم ينتبه الإنسان ، مثلاً ، إلى محاضرة ما ، فإنه لا يستطيع أن يدرك ما تضمنته من معلومات ، وهو بالتالي لا يستطيع أن يتعلمها وأن يتذكرها فيما بعد . ولذلك فإن المعلمين والمربين يحرصون دائماً على إثارة انتباه تلاميذهم حتى يمكنهم استيعاب الدروس وفهمها وتعلمها . ولقد كان استخدام القرآن للقصص ، كما أشرنا إلى ذلك سابقاً ، عاملاً هاماً في إثارة الانتباه إلى ما تتضمنه من مواعظ وعبر ودعوة إلى التوحيد . وقد نوه القرآن بأهمية الانتباه في استيعاب المعلومات وذلك في قوله تعالى :

« إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ »(١)

وقد جاءت هذه الآية بعد آية أخرى ذكر الله تعالى فيها أنه أهلك قبل قريش أمماً كثيرة من الكفار كانوا أشد منهم بطشاً . ويشير الله تعالى في هذه الآية الى أن في ذلك عظة لكل من له عقل ، أو استمع إلى هذا الكلام وفهمه وهو حاضر الذهن مركز الانتباه .

ويشير القرآن أيضاً إلى أهمية الانتباه حينما يذكر في سورة المزمل أن القيام بعد النوم يجعل الإنسان أكثر انتباهاً لمعاني القرآن ، وأكثر تفهماً لها . ولعل ذلك راجع إلى راحة الذهن بعد النوم من جهة ، وإلى الهدوء الذي يسود الليل وعدم الانشغال بالأمور المعيشية التي تشغل بال الإنسان عادة أثناء النهار ، من جهة أخرى .

يقول الله تعالى :

« إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا »(٢)

---

(١) ق : ٣٧ .

(٢) المزمل : ٦ . قال ابن كثير في تفسير ذلك : « والمقصود إن قيام الليل هو أشد مواطأة بين القلب واللسان ، وأجمع على التلاوة . ولهذا قال تعالى (هي أشد وطئاً وأقوم قيلا) أي أجمع للخاطر في أداء القراءة وتفهمها من قيام النهار لأنه وقت انتشار الناس ولفظ الأصوات وأوقات المعاش » . تفسير ابن كثير ، جـ ٤ ، ص ٤٣٥ .

وأشار القرآن أيضاً إلى أهمية الانتباه فى الفهم والتعلم وذلك فى قوله تعالى :

« وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ »[1]

فالاستماع إلى القرآن والإنصات إليه يتضمن معنى الانتباه إلى ما يقرأ من آياته لتدبر معناها وفهمها ، وتعلم ما فيها من عقائد وتعاليم وأوامر ونواهٍ وعبر وحكم . ومن الواضح أن في ذلك إشارة إلى أهمية الانتباه في الفهم والتعلم .

ومما يساعد على تركيز الانتباه ويسهل عملية التعلم عرض المعاني المجردة بطريقة مبسطة وموضحة وذلك بتمثيلها بأمور واقعية محسوسة حتى يمكن إدراكها وفهمها . ولهذا فإن المعلمين الآن كثيراً ما يستعينون بالوسائل البصرية والسمعية والتجارب العملية في شرح القوانين والنظريات العلمية ، مما يثير انتباه التلاميذ ويساعد على إدراكهم وفهمهم لها . والقصص والأمثال في القرآن إنما هي أساليب استخدمها القرآن لتجسيد المعاني العقائدية للدعوة الإسلامية وتقريبها إلى الأذهان . فالسامع لقصص القرآن يتحول إلى مشاهد لوقائع وأحداث تتجسَّد فيها هذه المعاني[2] ، ويؤدي ذلك بلا شك إلى شد انتباهه إلى هذه المشاهدالتي تتوالى في خياله واحدة بعد أخرى . وتؤدي الأمثال أيضاً في القرآن نفس هذا الدور ، فهي تقوم بتجسيد المعاني بتشبيهها وتصويرها بأشياء محسوسة مما يجعلها أقرب إلى إدراك الناس وفهمهم[3] . ومن أمثلة ذلك المثال الوارد في سورة إبراهيم والذي يشبه فيه الله تعالى عدم انتفاع الكافرين بأعمالهم الخيرة في الدنيا لعدم قيامها على أساس من الإيمان برمادٍ يطير بسبب الريح الشديدة فى يوم عاصف فلا يستطيع الإنسان الإمساك به :

« مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ »[4]

---

(١) الأعراف : ٢٠٤ .

(٢) محمد علي التسخيري : مرجع سابق : ص ١٤١ ، ١٤٢ ؛ سيد قطب : مرجع سابق ، ص ٦٢ ـ ٧٣ .

(٣) محمد علي التسخيري : مرجع سابق ، ص ١٤٢ ، ١٤٣ .

(٤) ابراهيم : ١٨ .

ومن أمثلة ذلك أيضاً المثال الذي شبه به الله تعالى الكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة التي تفيد الناس بثمرها الطيب ، والضاربة بجذورها في عمق الأرض ، والمرتفعة بساقها وأغصانها في عنان السماء ، وتعطي ثمرها في كل وقت حدده الله تعالى بمشيئته . وكذلك كلمة التوحيد ثابتة في قلب المؤمن ، ويصعد عمله الطيب إلى الله تعالى ، وينال بركته وثوابه في كل وقت . كما شبّه الله تعالى الكلمة الخبيثة بشجرة خبيثة اقتلعت من الأرض فليس لها ثبات فيها . وكذلك كلمة الباطل داحضة لا ثبات لها[1] .

« أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۝ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ »[2]

ومن أمثلة ذلك أيضاً المثال الوارد في سورة الرعد الذي بينَّ فيه الله تعالى أن الحق يبقى ، والباطل يزول . وشبه بقاء الحق وزوال الباطل بما تحمله الأنهار في جريانها مما يكون نافعاً للناس فيبقى ، وما لا يكون نافعاً لهم كالزبد فيعلو على سطحها ويذهب جفاء . كما شبه تعالى أيضاً بقاء الحق وزوال الباطل بما يحدث عند صهر المعادن بالنار ، فما ينفع الناس منها يبقى كالذهب والفضة اللذين تصنع منهما الحلى ، وكالحديد والنحاس اللذين تصنع منهما الآلات والأدوات النافعة للإنسان ، وما لا ينفع منها يعلو السطح ويرمى وينبذ .

« أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ

---

(١) المنتخب في تفسير القرآن الكريم ، ص ٣٦٨ .

(٢) ابراهيم : ٢٤ – ٢٦ .

وَٱلْبَـٰطِلَ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ »[1]

وتبتدئ بعض سور القرآن بحروف مثل: « الٓمٓ ، الٓر ، الٓمٓصٓ ، الٓمٓرٰ ، كٓهٰيٰعٓصٓ ، طٰسٓمٓ » . وقد ذكر المفسرون تفسيرات مختلفة للمراد من هذه الحروف . ومما قيل في تفسيرها أن المقصود منها إثارة انتباه المشركين للاستماع إلى القرآن لما لها من جرس خاص . فقد كان المشركون قد تواصوا بعدم الاستماع إلى القرآن ، وكان الابتداء بهذه الحروف يفتح لاستماعها أسماع المشركين ، حتى إذا ما استمعوا تلي عليهم القرآن المؤلف من هذه الحروف[2] .

ومما يثير الانتباه أيضاً استخدام القسم فاتحة لبعض السور المكية . وقد ورد القسم في القرآن في بداية خمس عشرة سورة . ومن أمثلة ذلك : « والصافاتِ ، والذارياتِ ، والطورِ ، والنجمِ ، والسماءِ ذاتِ البروج ، والسماءِ والطارق ، والفجرِ ، والعصرِ » . وكان ذلك مدعاة لجذب الانتباه إلى الاستماع إلى القرآن ، « فإن البدء به هو جذب لانتباه السامع لوقوع القسم على سمعه في شيء من الرهبة . فإذا حدث ذلك صحبه تهيؤ نفسي لتلقي ما يقال خصوصاً وإن ما يقال مبني على قسم ، والقسم شيء يهول . وفي هذه الحال يكون الإنسان أشد تأثراً بما يسمع مما لو فاتحته بما تريد من طريق الجدل والنقاش »[3] .

وفضلاً عن ذلك ، فإن أسلوب القرآن الذي يتميز بالإعجاز البلاغي ، والإيقاع الموسيقي إنما يهز الوجدان ، ويشد إليه الانتباه . ويمتاز أسلوب القرآن أيضاً بتناسق الجرس اللفظي أروع التناسق مع المعاني التي تؤديها الألفاظ مما يعطي للألفاظ « بعداً آخر غير البعد الدلالي المعتاد ، وإذا بالإنسان يجسد المعنى ضمن سماعه لصوت اللفظ وأدائه »[4] . ولا شك أن ذلك يشد الانتباه ، ويخلق

---

(١) الرعد : ١٧ .

(٢) تفسير ابن كثير ، جـ١ ، ص ٣٧ ؛ تفسير المنار ، جـ ١ ، ص ١٢٢ .

(٣) عبد الوهاب حمودة : مرجع سابق ، ص ١٦ ، ١٧ .

(٤) محمد علي التسخيري : مرجع سابق ، ص ١٤٣ ، ١٤٤ .

في الإنسان إحساساً بالموقف الذي يصوره القرآن مما يؤدي إلى دقة الاستيعاب والفهم .

المشاركة الفعّالة :

إن تعلم المهارات الحركية يقتضي أن يقوم المتعلم بأداء هذه المهارات بالفعل ، وأن يتدرب عليها حتى يتقنها . وليست الممارسة العملية مهمة فقط في تعلم المهارات الحركية ، بل إنها مهمة أيضاً في تعلم العلوم النظرية ، وفي تعلم السلوك الخلقي والفضائل والقيم وآداب السلوك الاجتماعي . فإن أداء الفرد بنفسه لما يريد أن يتعلم يساعد على سرعة التعلم وإتقانه . وقد تبين من نتائج إحدى الدراسات التجريبية أن الأفراد الذين كانوا يقرأون بأنفسهم بعض الحروف والكلمات المقابلة لها كانوا أسرع في حفظها من الأفراد الذين كانوا يستمعون فقط الى المجرّب يقرأ عليهم هذه الحروف والكلمات ، كما كانوا يرونها في نفس الوقت تعرض أمامهم على الشاشة بوساطة فيلم سينمائي[1] . وقد بينت نتائج هذه التجربة أهمية المشاركة الفعالة في عملية التعلم .

ونحن نجد في القرآن تطبيقاً لمبدأ المشاركة الفعالة ، يتضح ذلك من الأسلوب الذي اتبعه القرآن في تعليم المسلمين الخصال النفسية الحميدة ، والأخلاق والعادات السلوكية الفاضلة عن طريق تدريبهم العملي عليها بما كلفهم القيام به من عبادات مختلفة . فالوضوء وأداء الصلاة في مواعيد معينة كل يوم يعلمان المسلمين النظافة والطاعة والنظام والصبر والمثابرة . والصوم يعلمهم أيضاً الطاعة ، والصبر على تحمل المشاق ، والعطف على الفقراء . والحج يعلمهم الطاعة ، والصبر على تحمل المشاق . وسنتعرض لفوائد العبادات في شيء من التفصيل فيما بعد في الفصل العاشر الخاص بالعلاج النفسي في القرآن .

وقد عني القرآن عناية فائقة ، إلى جانب تعليم المسلمين الإيمان والعقائد الدينية ، بتوجيههم إلى العمل الصالح . فالإيمان الصادق يجب أن يعبر عنه

---

(١) محمد عثمان نجاتي : مرجع سابق ، ص ١٩٥ – ١٩٧ .

في سلوك المؤمن وعمله ، وذلك بالتحلي بالأخلاق الفاضلة ، وحب الخير للناس ، وبالسبق إلى أداء ما يرضي الله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام . فالعمل الصالح ، والقيام بما يأمرنا به الشرع يثبت التقوى فى القلوب ، ويقوى السلوك الإسلامى السليم الذى يتفق مع القيم الدينية والفضائل الخلقية الإسلامية . وقد ورد الإيمان فى كثير من آيات القرآن مصحوباً بالعمل الصالح . ومن أمثلة ذلك :

« وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ .. »(١)

« وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ »(٢)

« إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ »(٣)

« وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ »(٤)

« وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ »(٥)

« وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا »(٦)

« وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ »(٧)

---

(١) البقرة : ٢٥ .
(٢) البقرة : ٨٢ .
(٣) البقرة : ٢٧٧ .
(٤) آل عمران : ٥٧ .
(٥) المائدة : ٩ .
(٦) الكهف : ٨٨ .
(٧) طه : ٨٢ .

توزيع التعلم :

بينت الدراسات التجريبية التي قام بها علماء النفس المحدثون أن توزيع التعلم أو التدريب على فترات متباعدة تتخللها فترات راحة يساعد على سرعة التعلم وتثبيته في الذاكرة ، وأن التعلم الذي يحدث باستخدام طريقة التوزيع أفضل كثيراً من التعلم الذي يحدث باستخدام طريقة التركيز ، وهو التعلم الذي يتم في فترة زمنية متصلة دون أن تتخللها فترات راحة[1] . وقد طبق هذا المبدأ في القرآن ، إذ أنه نزل على فترات متباعدة في مدة طويلة من الزمن قدرها ثلاث وعشرون سنة وذلك حتى يستطيع الناس أن يتعلموه على مهل ، وأن يستوعبوا معانيه ، وقد ساعد ذلك على اتقان تعلمه وفهمه وحفظه . ولو كان القرآن نزل كله دفعة واحدة لكان من الصعب تعلمه ، وفهم معانيه وأغراضه .

« وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا »[2]

« وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا »[3]

التدرج في تعديل السلوك :

إن التخلص من بعض عاداتنا السيئة القوية التي مارسناها مدة طويلة من الزمن بحيث أصبحت ثابته ومستقرة في سلوكنا ليس بالأمر السهل بالنسبة لكثير من الناس ، إذ أن ذلك يحتاج إلى إرادة قوية ، وجهد كبير ، وتدريب طويل ، وهذا أمر قد لا يطيقه كثير من الناس . ولذلك فإن أفضل طريقة يمكن

---

(١) محمد عثمان نجاتي : مرجع سابق ، ص ١٩٠ – ١٩٤ .

(٢) الإسراء : ١٠٦ . جاء في المنتخب في تفسير القرآن الكريم في تفسير هذه الآية : «وقد فرقنا هذا القرآن ، ونزلناه منجماً على مدة طويلة ، لتقرأه على الناس على مهل ليفهموه » .

(٣) الفرقان : ٣٢ . كذلك : أي لقد أنزلناه كذلك مفرقاً لنثبت به فؤادك ؛ بأنسك به وحفظك له . ورتلناه : فرقناه ، أو قرأناه على لسان جبريل شيئاً فشيئاً على تؤدة وتمهل . انظر المنتخب في تفسير القرآن الكريم .

اتباعها للتخلص من عاداتنا السيئة المستحكمة هي أن نعمل على التخلص منها تدريجياً .

إن أحسن طريقة للتخلص من انفعال ما ، كانفعال الخوف مثلاً ، هي أن نقوم بالتدريج بإحلال انفعال معارض لانفعال الخوف كانفعال السرور أو الحب مثلاً محل انفعال الخوف حتى نصل في النهاية إلى التخلص النهائي من الخوف . وقد بينت بعض التجارب التي أجراها بعض علماء النفس المحدثين أنه أمكن بهذه الطريقة تخليص الطفل من خوفه من حيوان ما ، وتعليمه حب هذا الحيوان بدلاً من الخوف منه[1] . وبهذه الطريقة أيضاً يمكن التخلص من عاداتنا السيئة ، بأن نحل محلها عادات معارضة ، وهو أسلوب يتبعه بعض علماء النفس المحدثين في العلاج النفسي .

ولقد كان للعرب قبل الإسلام بعض العادات السيئة المستقرة في سلوكهم ، ولم يكن من السهل في المرحلة الأولى من الدعوة الإسلامية أن يطلب من المسلمين التخلي عن بعض عاداتهم السيئة القوية التي ألفوهامدة طويلة من الزمن ، ولذلك فقد اتبع الإسلام في علاج هذه العادات السيئة أسلوبين . الأسلوب الأول هو تأجيل علاج هذه العادات حتى يستقر الإيمان في قلوب المسلمين بحيث يمكن الاستعانة بقوة الإيمان كدافع قوي يسهل عملية التخلص من العادات السيئة المستحكمة ، وتعلم عادات جديدة بدلاً منها . ولهذا السبب كانت معظم آيات القرآن التي نزلت بمكة في المرحلة الأولى من الدعوة الإسلامية تتعلق أساساً بالدعوة إلى عقيدة التوحيد . وكان الرسول عليه صلوات الله وسلامه يتعهد من يؤمنونبدعوته بالتربية الروحية لترسيخ الإيمان والتقوى في نفوسهم . ولا شك أن ذلك كان مرحلة ضرورية وهامة في الإعداد النفسي للمسلمين بحيث أصبحوا في حالة تهيؤ تام لتغيير سلوكهم وعاداتهم وأفكارهم ونظام حياتهم تغييراً كاملاً . كما جعلهم أيضاً في حالة استعداد لقبول الآيات التي نزلت فيما بعد للنهي عن عادات كانت شائعة بينهم ، ما كان المسلمون في أول عهدهم بالإسلام مستعدين لتقبلها بسهولة كالنهي عن الخمر والربا . ولكن بعد أن رسخ الإيمان

---

(١) محمد عثمان نجاتي : مرجع سابق ، ص ١٣٧ ، ١٣٨ .

في قلوب المسلمين ، كان الإيمان دافعاً قوياً إلى الطاعة التامة لله والرسول ، وإلى تقبلهم عن رضا كل ما يؤمرون به حتى ولو كان ذلك يتطلب منهم الامتناع عن عادات قديمة كانت قد استقرت في سلوكهم من قبل لسنوات طويلة . فحينما نزلت آيات تحريم الخمر فيما بعد ، وكان الإيمان قد استقر في القلوب ، امتنع المسلمون جميعاً عن شربه ، وقاموا بسكب كل ما لديهم منه في شوارع المدينة .

أما الأسلوب الثاني الذي استخدمه القرآن في علاج المسلمين من عاداتهم السيئة المستقرة القوية فقد كان عبارة عن التهيئة المتدرجة لنفوس المسلمين للتخلص من هذه العادات ، وذلك عن طريق التكوين التدريجي لاستجابة معارضة للاستجابة المطلوب التخلص منها . وقد اتبع القرآن هذه الطريقة في علاج مشكلة شرب الخمر . فقد عمد القرآن في أول الأمر إلى تنفير المسلمين من شرب الخمر ، وتكريههم لها ، دون أن يقوم بتحريمها تحريماً تاماً . ثم تدرج بهم إلى التحريم التام . فكانت أول آية نزلت في الخمر تشير إلى أن مضارها أكبر من منافعها ، وفي هذا تنفير للمسلمين منها ، وحث على الامتناع عن شربها . وقد قام بعض الصحابة فعلاً بترك شرب الخمر بعد نزول هذه الآية ، ولكنهم لم يتركوها كلهم . قال تعالى :

« يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا .. »(١)

ثم تدرج القرآن بعد ذلك إلى درجة أشد حزماً في تنفير المسلمين من شرب الخمر ، وفي حثهم على الامتناع عنها ، حينما كان بعض الصحابة يذهبون إلى الصلاة وهم سكارى فيخطئون في قراءة القرآن ، فحرم عليهم القرآن أن يقربوا الصلاة وهم سكارى . وفي ذلك ، في الواقع ، تحريم لشرب الخمر في معظم أوقات اليوم .

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ .. »(٢)

---

(١) البقرة : ٢١٩ .

(٢) النساء : ٤٣ .

إن الامتناع عن شرب الخمر خمس أوقات في اليوم ، وهي أوقات تشمل معظم ساعات اليوم تقريباً ، إنما كان بمثابة تدريب للمسلمين على الإقلاع عن شرب الخمر . وقد جعلهم هذا التدريب متهيئين نفسياً للانتقال إلى المرحلة التالية وهي الامتناع نهائياً عن تعاطي الخمر ، وذلك حينما نزلت الآية التي حرمت الخمر تحريماً تاماً .

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ »[1]

إن هذا الأسلوب في التدرج في تحريم الخمر قام بإضعاف حب المسلمين لها تدريجياً ، وأحل محل الميل إليه والرغبة فيه استجابة معارضة له هي استجابة النفور والكره . وقد تمت هذه العملية تدريجياً حتى وصلت إلى النهاية المطلوبة بنجاح تام . فما نزلت آية التحريم حتى قام جميع مسلمي المدينة بالتخلص مما لديهم من خمر بسكبها في شوارع المدينة . ولو كانت نزلت آية تحريم الخمر في مكة أثناء المرحلة الأولى من الدعوة الإسلامية لما كنا نتوقع أن يكون لها في نفوس المسلمين نفس التأثير الذي احدثته حينما نزلت في المدينة في وقت كان فيه الإيمان قد استقر قوياً في قلوبهم ، وكان التحريم التدريجي للخمر قد هيأهم نفسياً للإقلاع النهائي عن شربها بمجرد نزول آية التحريم . ويروى عن السيدة عائشة رضي الله عنها أنها قالت : « إنما نزل أول ما نزل منه (أي القرآن) سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام . ولو نزل شيء : لا تشربوا الخمر ، لقالوا لا ندع الخمر أبداً . ولو نزل : لا تزنوا ، لقالوا لا ندع الزنا أبداً »[2] .

---

(١) المائدة ٩٠ ، ٩١ .

(٢) فتح البارى بشرح صحيح البخاري ، جـ١٩ ص ٤٨ .

وقد اتبع القرآن هذا الأسلوب ذاته في علاج الربا الذي كان متفشياً بين العرب في الجاهلية ، فقام بتحريمه تدريجياً . ويمكن أن نشير إلى أربع مراحل مرّ بها تحريم الربا [1].

في المرحلة الأولى أظهر الله تعالى عدم رضاه عن الربا . وذلك في قوله تعالى :

« وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ... »[2]

وفي المرحلة الثانية نزلت آية كان فيها وعيد لليهود بسبب ممارستهم للربا ، وفي ذلك تلويح بالتحريم ، وإن لم يكن نصاً صريحاً بالتحريم .

« فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۝ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا »[3]

وفي المرحلة الثالثة حرم الله تعالى الربا الفاحش الذي كان يمارسه العرب في الجاهلية ، وذلك بقوله تعالى :

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ »[4]

وفي المرحلة الرابعة حرم الله تعالى الربا تحريماً قاطعاً بقوله تعالى :

« ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ

---

(١) مصطفي الرافعي : الإسلام ومشكلات العصر . بيروت : دار الكتاب اللبناني ، ١٩٧٢، ص ٢٠٠، ٢٠١ .

(٢) الروم : ٣٩ .

(٣) النساء : ١٦٠ ، ١٦١ .

(٤) آل عمران : ١٣٠ .

ٱلرِّبَوٰا۟ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ »[1]

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ »[2]

وكانت الآية الأولى التي نزلت عن الربا وهي التي تشير إلى عدم رضا الله سبحانه وتعالى عنه مكية ، أما الآيات الأخرى التي نزلت بعد ذلك وخاصة آيات التحريم القاطع للربا فهي مدنية . ومن ذلك يتبين أيضاً أن التحريم القاطع للربا قد نزل أيضاً بعد أن استقر الإيمان في قلوب المسلمين .

والأسلوب الذي اتبعه القرآن الكريم في علاج تعاطي الخمر والربا هو التكوين التدريجي لاستجابة النفور والكراهية لهما حتى تصل إلى درجة من القوة يمكنها أن تتغلب على استجابة الميل والحب لهما ، وبذلك استطاع القرآن أن يعالج بنجاح هاتين العادتين القويتين المستقرتين في سلوك العرب ، وأن يقضي عليهما بأسلوب مخطط في غاية الدقة والحكمة .

وقد توصل بعض المعالجين النفسيين حديثاً إلى أسلوب في العلاج النفسي مستمد من أبحاث سكنر Skinner في الإشراط الإجرائي ، وهو يشبه كثيراً الأسلوب الذي استخدمه القرآن في علاج تعاطي الخمر والربا . ويعرف هذا الأسلوب في العلاج النفسي «بالتشكيل» . ومن أمثلة تعديل السلوك عن طريق التشكيل حالة مريض عقلي نزيل أحد مستشفيات الأمراض العقلية كان يرفض الذهاب إلى حجرة خاصة بالمستشفى أعدت لإجراء بعض التجارب على المرضى ،

---

(١) البقرة : ٢٧٥ ، ٢٧٦ .

(٢) البقرة : ٢٧٨ ، ٢٧٩ .

وكانت تقع هذه الحجرة في الدور الأرضي من المستشفى . وتتلخص الطريقة التي اتبعت مع هذا المريض لدفعه إلى النزول إلى هذه الحجرة في مكافأته على قيامه بالأفعال التي تقترب شيئاً فشيئاً من الاستجابة النهائية المطلوب أداؤها . فحين يدير المريض رأسه لأول مرة نحو الباب الموصل إلى السلم الذي يؤدي إلى الدور الأرضي أسرع المعالج بمكافأته بقطعة من الحلوى التي يحبها . وسرعان ما يعاود المريض الالتفات نحو الباب ، وكان دائماً يكافأ على ذلك بقطعة من الحلوى . وبعد تكرار ذلك عدة مرات وقف المريض في مواجهة الباب . وبعد استكمال هذه المرحلة من التدريب ، امتنع المعالج عن مكافأته إلا إذا خطا خطوة نحو الباب . وبعد مكافأة المريض عدة مرات عقب الخطوات التي خطاها نحو الباب ، امتنع المعالج عن مكافأته إلا إذا خطا خطوة في اتجاه السلم الموصل إلى الدور الأرضي . واستمر العلاج على هذا النحو عدة أيام حتى نزل المريض بالفعل الدرج ودخل الحجرة المعدة لإجراء التجارب [1] .

وقد استخدمت طريقة التشكيل أيضاً في تعليم الأطفال بعض الاستجابات الصعبة ، وذلك بالعمل على تكوين هذه الاستجابات لديه تدريجياً . فمثلاً ، إن الطفل الذى لم يتعلم من قبل النظافة والذهاب إلى الحمام فى الوقت المناسب ، ويكون قد تجاوز السن الذى يتعلم فيه معظم الأطفال ذلك ، فإنه يمكن أن نعلمه ذلك بأن نبدأ بإثابته بإعطائه حلوى ، مثلاً ، لمجرد أن يذهب إلى الحمام . فإذا تعلم الطفل ذلك ، ينتقل العلاج إلى الخطوة التالية وهي أن يطلب منه أن يذهب إلى الحمام عند احتمال ظهور حاجته إلى الإخراج بطريقة لا إرادية ، ثم يثاب الطفل عندما يتم الإخراج إثابة أكبر بإعطائه قطعة أكبر من الحلوى ، وبثناء كثير من والديه . ثم أخيراً يثاب الطفل ثواباً أكبر إذا أخبر والديه بأنه يحتاج إلى الذهاب إلى الحمام وقبل أن يتم الإخراج بطريقة لاإرادية [2] . إن هذا الأسلوب في العلاج يعتمد أساساً على التكوين التدريجي للاستجابة

---

(١) سارنوف أ . مدنيك ، هوارد ر . بوليو ، واليزابث ف . لوفتس : التعلم ، ترجمة محمد عماد الدين اسماعيل ، ومراجعة محمد عثمان نجاتي . بيروت : دار الشروق ، ١٩٨١ ، ص ٢١ ، ٢٢ .

(٢) جوليان روتر : علم النفس الاكلينيكي ، ترجمة عطية محمود هنا ، ومراجعة محمد عثمان نجاتي . ط ٢ ، بيروت : دار الشروق ، ١٩٨٤ ص ١٥٩ ، ١٦٠ .

المطلوب تعلمها عن طريق التعلم التدريجي لأنواع من الاستجابات المتوسطة والتي تتجه تدريجياً نحو تكوين الاستجابة المطلوبة . وهذا الأسلوب في العلاج يماثل الأسلوب الذي اتبعه القرآن من قبل في علاج تعاطي الخمر والربا .

واتبع جوزيف وولبى Joseph Wolpe أيضاً « طريقة التدريج » في علاج الخوف المرتبط بأشياء معينة ، وذلك عن طريق تكوين استجابة معارضة للخوف كالاسترخاء لسلسلة متدرجة من الأشياء المشابهة للشيء الأصلي المثير للخوف ، ولكنها ترتب في نظام متدرج من أقلها إثارة للخوف إلى أكثرها إثارة له ، وبحيث يكون الشيء الأصلي المثير للخوف والمطلوب علاج الفرد من الخوف منه في أعلى هذه السلسلة . ثم يبدأ العلاج بتعليم المريض الاسترخاء أثناء تخيّل الشيء الأدنى في هذه السلسلة حتى يزول الخوف المرتبط به . ثم ينتقل العلاج إلى تعليم المريض الاسترخاء أثناء تخيل الشيء الثاني في السلسلة والذي يثير قدراً أكبر من الخوف ، ويستمر العلاج حتى يزول الخوف المرتبط به . وهكذا يستمر العلاج بالتخلص التدريجي من الخوف المرتبط بهذه السلسلة المتدرجة من الأشياء المثيرة للخوف حتى ينتهي العلاج إلى التخلص من الخوف المرتبط بالشيء الذي يوجد في قمة هذه السلسلة ، وهو الذي بدأ العلاج أساساً للتخلص منه[1] .

إن أسلوب التدريج في تعلم الاستجابات الصعبة ، أو في العلاج النفسي الذي يرمي إلى التخلص من بعض العادات أو الانفعالات غير المرغوب فيها ، والذي توصل إليه علماء النفس المحدثون أخيراً قد سبق أن استخدمه القرآن منذ أربعة عشر قرناً من الزمان في علاج تعاطي الخمر والربا .

---

(١) ريتشارد م . شوين : علم الأمراض النفسية والعقلية ، ترجمة أحمد عبد العزيز سلامة . القاهرة : دار النهضة العربية ، ١٩٧٩ ، ص ٨٤٦ – ٨٥٤ .

الفصل السادس

العلم اللدني في القرآن

الإلهام والرؤيا

إن قدرة العقل الإنساني على معرفة الحقائق وتحصيل العلوم محدودة ، فهو لا يستطيع أن يحيط بجميع الحقائق الكونية ، كما أنه عاجز عن أن يصل بجهوده الذاتية إلى معرفة الحقائق الغيبية .

« .. وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا »(١)

وفضلاً عن ذلك ، فإن العقل الإنساني معرض لأخطاء التفكير التي أشرنا إليها في الفصل الرابع الخاص بالتفكير في القرآن ، كما أنه معرض للغفلة والنسيان ، ولذلك كان الإنسان في حاجة من وقت إلى آخر إلى هداية الله تعالى له وتوجيهه إلى ما فيه خيره وصلاحه ، سواء عن طريق الأنبياء والرسل ، أو عن طريق الإلهام والرؤيا . وقد كانت مهمة الأنبياء والرسل الذين بعثهم الله تعالى في عصور التاريخ المختلفة هي هداية الناس وتعليمهم شعائر الدين ، وما فيه خير البشرية .

« كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ .. »(٢)

« وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ .. »(٣)

---

(١) الإسراء : ٨٥ .

(٢) البقرة : ٢١٣ .

(٣) النحل : ٣٦ .

« لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ .. »[1]

وليس العلم اللدني[2] الذي يحصل عن طريق الإلهام والرؤيا خاصاً بالأنبياء والرسل وحدهم ، بل إنه يمكن أن يحصل أيضاً للناس الآخرين من غير الأنبياء والرسل إذا ما توافرت فيهم شروط معينة من الصلاح والتقوى والصفاء القلبي والشفافية الروحية .

والإلهام هو نوع من العلم الذي يفيض الله سبحانه وتعالى به على الإنسان ، ويلقيه في قلبه ، فتنكشف له بعض الأسرار ، وتتضح له بعض الحقائق . وقد وردت في القرآن الكريم آيات كثيرة تشير إلى العلم اللدني الذي أفاض الله تعالى به على أنبيائه ورسله . ومن أمثلة ذلك ما ذكره القرآن في سورة الأنبياء عن داوود وسليمان عليهما السلام حينما قاما بالتحكيم بين رجلين أحدهما صاحب حرث اشتكى بأن غنم الرجل الثاني قد رعت فيه وأفسدته . فحكم داوود عليه السلام لصاحب الحرث برقاب الغنم . وألهم الله تعالى سليمان عليه السلام بالحكم لصاحب الحرث بالانتفاع بدرّ الغنم ونسلها وصوفها إلى أن يعود الحرث كما كان بإصلاح صاحب الغنم لها فيردها إليه . وقد رأى داوود رجاحة رأي سليمان فرجع إليه . قال تعالى :

« وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ۝ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا .. »[3]

ومن أمثلة ذلك أيضاً ما ذكره الله تعالى عن تعليمه لداوود عليه السلام صناعة الدروع ، وكان داوود أول من صنعها .

« وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ »[4]

---

(١) الحديد : ٢٥ .

(٢) العلم اللدني هو العلم الرباني الذي يصل لصاحبه عن طريق الإلهام (انظر المعجم الوسيط) .

(٣) الأنبياء : ٧٨ ، ٧٩ .

(٤) الأنبياء : ٨٠ .

وقال الله تعالى أيضاً عن داوود عليه السلام :

« .. وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ .. »(١)

وعلم الله تعالى يوسف عليه السلام عن طريق الإلهام تأويل الأحلام والرؤى .

« وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ .. »(٢)

« .. وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ »(٣)

وذكر القرآن ما قاله يوسف عليه السلام لصاحبيه في السجن مؤكداً لهما معرفته بتأويل الأحاديث ، وعلمه بالمغيبات ، وقدرته على الإخبار بها قبل أن تحدث ، وذلك مما علمه الله سبحانه وتعالى وألهمه به .

« قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ .. »(٤)

وحينما طلب يوسف عليه السلام من إخوته أن يذهبوا بقميصه ويلقوه على وجه أبيه فيصبح بصيراً ، إنما كان يعلم مقدماً عن طريق الإلهام الإلهي أن أباه سيصبح بصيراً حينما يلقى القميص على وجهه .

---

(١) البقرة : ٢٥١ .

(٢) يوسف : ٦ .

(٣) يوسف : ٢١ ، ٢٢ .

(٤) قال يوسف عليه السلام لصاحبيه فى السجن : « لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا أخبرتكما قبل حضوره إليكما بنوعه وأوصافه ، فقد كان من عادته ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قبل حضور الطعام إليها . يقول لها : اليوم يأتيكما طعام من صفته كيت وكيت ، فيجدانه كذلك بعد حضوره ، وأطلق التأويل على ذلك تشبيهاً له بتأويل الرؤيا ، فإنهما يشتركان فى الإخبار بالغيب » (التفسير الوسيط للقرآن الكريم ، مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر .

« ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا .. »[1]

وكان يعقوب عليه السلام يعلم عن ابنه يوسف عليه السلام بإلهام من الله ما لا يعلم أبناؤه .

« قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ »[2]

« فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ »[3]

وقال الله تعالى أيضاً عن يعقوب عليه السلام :

« .. وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ .. »[4]

وقال الله تعالى مخاطباً محمداً صلى الله عليه وسلم ؛

« .. وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا »[5]

وفي القرآن كثير من الآيات التي تشير إلى إلهام الله تعالى أنبياءه ورسله العلم والحكمة .

ومن الأمثلة البارزة في القرآن عن العلم اللدني ما جاء في سورة الكهف عن العبد الصالح الذي طلب منه موسى عليه السلام أن يرافقه ليتعلم منه .

---

(١) يوسف : ٩٣ .

(٢) يوسف : ٨٦ .

(٣) يوسف : ٩٦ .

(٤) يوسف : ٦٨ .

(٥) النساء : ١١٣ .

﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ۝ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾ (١)

ومع أن موسى كان نبياً ورسولاً إلا أنه مع ذلك لم يكن يعلم ما خصَّ الله تعالى به العبد الصالح من علم لدنيّ كشف له به من أسرار الغيب ما لم يكن يعلم نبي الله موسى عليه السلام . فقد علم العبد الصالح من الله تعالى أن هناك ملكاً يتعقب السفن ويغتصبها ، ولذلك خرق سفينة يملكها بعض الفقراء والمساكين ليعيبها وينجيها من الملك الظالم . وعلم أيضاً أن الغلام الذي قتله سيرهق والديه الصالحين فأراد الله تعالى أن يبدلهما عنه غلاماً خيراً منه . وعلم أيضاً أنه يوجد تحت الجدار الذي سينقضّ كنز لغلامين فقيرين في المدينة كان والدهما صالحاً ، فأقامه ليحفظه لهما حتى يكبرا ويستخرجا كنزهما . وقال العبد الصالح أن ما فعله لم يكن عن أمره ، وإنما كان عن أمر الله تعالى .

﴿ .. وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى .. ﴾ (٢)

وقد وردت في القرآن آيات كثيرة تدل على أن الإيحاء أو الإلهام الإلهي يمكن أن يحدث لغير الأنبياء والرسل . فقد حدث ذلك لأم موسى .

﴿ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ۝ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ .. ﴾ (٣)

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ (٤)

وألهم الله تعالى أيضاً الحواريين أن يؤمنوا بعيسى عليه السلام .

---

(١) الكهف : ٦٥ ، ٦٦ .

(٢) الكهف : ٨٢ .

(٣) طه : ٣٨ ، ٣٩ .

(٤) القصص : ٧ .

« وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ »(١)

ويشير القرآن أيضاً إلى أن الإيمان والتقوى والإخلاص في عبادة الله وما يؤدي إليه ذلك من صفاء القلب وشفافية الروح يجعل الإنسان مهيأً لتلقى الإيحاءات والإلهامات من الله تعالى ليهديه إلى سبل الحق والخير ، وليرشده إلى طرق الفضيلة والهداية .

« وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ »(٢)

« وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ »(٣)

« .. وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ .. »(٤)

ويوجد في الحديث النبوي الشريف ما يدل على حدوث الإلهام الإلهي لعمر بن الخطاب رضي الله عنه . فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلوات الله عليه وسلامه قال : « لقد كان فيما قبلكم من الأمم ناس محدّثون ، فإن يك في أمتي أحد فإنه عمر »(٥) . وقيل فى تفسير « محدثون » أى ملهمون . وفى حديث آخر أخرجه أحمد والبزار عن أبى هريرة أن النبى صلوات الله عليه وسلامه قال : « إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه »(٦) . وأخرج ابن عساكر عن طارق بن شهاب قال : « إن كان الرجل

---

(١) المائدة : ١١١ .

(٢) محمد : ١٧ .

(٣) العنكبوت : ٦٩ .

(٤) البقرة : ٢٨٢ .

(٥) رواه البخارى ، الحديث رقم ٣٦٨٩ ، كتاب فضائل أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام ، فتح الباري بشرح البخاري ، جـ ١٤ ، ص ١٨٩ .

(٦) رواه الترمذى عن ابن عمر (مشكلة المصابيح للتبريزى الحديث رقم ٦٠٢٣ ، جـ ٣ ص ١٧٠٤) .

ليحدث عمر بالحديث فيكذبه الكذبة فيقول : إحبس هذه ، ثم يحدثه بالحديث فيقول : إحبس هذه ، فيقول له : كل حديثي حق إلا ما أمرتني أن أحبسه [1] » .

ويتضح من الحديثين السابقين ومن رواية ابن عساكر أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يتمتع بقدر كبير من الصفاء القلبي الذى يجعله شديد القابلية لتلقى الإلهامات من الله سبحانه وتعالى .

وقد يحدث الإلهام للناس عن طريق الملائكة وهو مايسميه الصوفيون بالخاطر الملكى . فعن عبد الله بن مسعود أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : « إن للشيطان لِمّة بابن آدم ، وللملك لمة . فأما لمة الشيطان فإيعاز بالشر وتكذيب بالحق ، وأما لمّة المَلَك فإيعاز بالخير وتصديق بالحق . فمن وجد من ذلك شيئاً فليعلم أنه من الله تعالى فليحمد الله تعالى . ومن وجد الأخرى فليتعوذ بالله من الشيطان » [2].

ولا يتعرض علماء النفس المحدثون لدراسة الإلهام الإلهي ، ولكنهم حينما يدرسون التفكير المبدع فإنهم يطلقون مصطلح «الإلهام» أو «الإشراق» على ظهور الأفكار المبدعة التي يبدو أنها تظهر فجأة لبعض المفكرين أثناء تفكيرهم في بعض المشكلات. وهم يفسرون هذا النوع من الإلهام بأنه ينبثق من عقل المفكر نفسه ، وهو ليس شيئاً يفيض عليه من مصدر خارجي . فحينما يفكر الإنسان في مشكلة ما مدة طويلة دون أن يهتدي إلى حلها ، فإنه عادة ما يتركها فترة من الزمن يرتاح فيها ذهنه ، ثم يعود إلى التفكير فيها فيما بعد . وتحدث في هذه الفترة من الراحة ، والتي يسميها علماء النفس بفترة الحضانة ، تغيرات هامة في عملية التفكير . فأولاً ، يتخلص التفكير من بعض الشوائب التي كانت تعوقه عن الوصول إلى الحل . وثانياً ، يرتاح الذهن من الإجهاد الذي يصيبه من مواصلة التفكير في المشكلة ، فإذا عاد إلى التفكير فيها فيما بعد يكون أكثر صفاء ونضارة . وثالثاً ، يحدث نوع من التنظيم في معلومات الإنسان مما يؤدي إلى اتضاح بعض العلاقات التي لم تكن واضحة من قبل ، وظهور بعض الأفكار الجديدة ، والاهتداء إلى حل للمشكلة . ويرى بعض علماء النفس

---

(١) سعيد حوي : مرجع سابق ، ص ١٥٤ .

(٢) رواه مسلم والترمذى (منصور على ناصف : التاج على الجامع للأصول فى أحاديث الرسول ، ط٤ ، القاهرة : دار الفكر . ١٩٧٥ ، جـ ٣ ، ص ٣٤٢ .

أنه يحدث نوع من التفكير اللاشعوري في المشكلة ، ويبدو أن بعض النشاط العقلي يستمر على نحوٍ ما [1] .

وليس هناك في الواقع تعارض بين التفسير العلمي للإلهام الذي يذهب إليه علماء النفس المحدثون في تفسيرهم للتفكير المبدع ، وبين التفسير الديني له . إن علماء النفس المحدثين يتوقفون فقط في تفسيرهم عند العمليات الفسيولوجية التي تتم فى المخ ، والعمليات السيكولوجية المصاحبة لها. غير أنه من وجهة نظر الدين ، فإنه مع التسليم بما يقوله علماء النفس المحدثون عن العمليات الفسيولوجية التى تتم فى المخ وما يصاحبها من عمليات سيكولوجية ، فإننا نتجاوز هذا المستوى من التفسير، ونذهب إلى أن الله سبحانه وتعالى المتصرّف في كل شيء في الكون ، والمدّبر لأموره ، قد تقتضي مشيئته أن يوجه عملية التفكير لدى بعض الناس على نحوٍ ما بحيث يهديهم إلى اكتشاف بعض الحقائق التي يريد سبحانه أن يلهمهم بها ، فتتضح لهم هذه الحقائق كأنما أشرقت في عقولهم فجأة . وقد تقتضي مشيئة الله تعالى أن يحدث الإلهام أيضاً في غير أوقات التفكير المبدع ، بأن يفيض الله تعالى في أي وقت يشاء على أنبيائه ورسله واغيرهم من عباد الله بما يشاء من إيحاءات وإلهامات .

إن كل ما يدور فى مخ الإنسان من أفكار وعمليات عقلية ، وكل ما يجول فيه من خواطر ، إنما يتم بمشيئة الله وإرادته ، فهو المتصرف والمدبّر لكل شيء فى الكون . ولقد أشار الرسول صلى الله عليه وسلم إلى هذه الحقيقة فى الدعاء الذى كان يقول فيه : « اللهم إنى عبدك ، وابن عبدك ، وابن أمتك ، ناصيتى بيدك ... الحديث » [2] . والناصية هى مقدم الدماغ الذى يحتوى على الفصين الجبهيين اللذين توجد فيهما مراكز العمليات العقلية للإنسان . ويشير قول الرسول صلى الله عليه وسلم « ناصيتى بيدك » إلى أن الله سبحانه وتعالى هو المتصرف المدبّر لما يحدث فى خلايا مخ الإنسان من عمليات فسيولوجية ولما يصاحبها من عمليات سيكولوجية ، وهو الموجّه لما يدور فيها من عمليات عقلية ، وتفكير مبدع ، وخواطر وإلهامات .

---

(١) محمد عثمان نجاتى : مرجع سابق ، ص ٣٢٨ ـ ٣٣٠ .

(٢) رواه أحمد ، جـ ١ ، ص ٣٩١ .

وقد قام علماء النفس المسلمون الأقدمون بتفسير «الإلهام» تفسيراً يتفق مع مفهوم الدين له ، ومع ما جاء في القرآن عنه . فابن سينا ، مثلاً ، يفسر الوحي أو الإلهام الذي يحدث لبعض الناس سواء في حال اليقظة أو في المنام في صورة رؤيا ، على أنه ناشئ عن اتصال النفس بالملكوت أو الملأ الأعلى (العقل الفعال فى نظريته) ، وتلقى الوحى أو الإلهام عنه[1] .

وكما أن مشيئة الله سبحانه وتعالى قد تقتضي توجيه التفكير لدى بعض الناس إلى الاهتداء إلى الحق بما يفيض سبحانه وتعالى عليهم من إلهامات وإيحاءات ، فكذلك قد تقتضي مشيئته جل شأنه توجيه تفكير بعض الناس الآخرين بعيداً عن الحق بسبب استكبارهم وعنادهم وغفلتهم .

« سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَـٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَـٰفِلِينَ »[2]

الأحلام والرؤى

الأحلام من الظواهر النفسية المألوفة والشائعة بين الناس . وقد حاول المفكرون والعلماء في جميع عصور التاريخ تفسيرها ومعرفة أسبابها ، ووضعوا لذلك عدة تفسيرات مختلفة . فبعض الأحلام ينشأ نتيجة إحساسات يحس بها الإنسان وهو نائم سواء كانت هذه الإحساسات تحدث نتيجة مؤثرات خارجية تؤثر في حواسه ، أو كانت إحساسات ناشئة عن مؤثرات داخلية تحدث من البدن نفسه . وبعض الأحلام الأخرى يحدث نتيجة استمرار انشغال الفكر بأمور كانت تشغله أثناء اليقظة ، وبعضها الآخر عبارة عن تذكر بعض الأحداث السابقة . وتعتبر نظرية

---

(١) محمد عثمانى نجاتى : الإدراك الحسى عند ابن سينا ، بحث فى علم النفس عند العرب ، ط ٣ ، بيروت : دار الشروق ، ١٩٨٠ ، ص ٢١٦ .

(٢) الأعراف : ١٤٦ .

فرويد في تفسير الأحلام أكثر التفسيرات شيوعاً الآن بين علماء النفس ، وهي تذهب إلى أن الأحلام طريقة رمزية للتعبير عن دوافع الإنسان اللاشعورية .

وتنحصر بحوث علماء النفس المحدثين في الأحلام على هذه الأنواع من الأحلام التي أشرنا إليها سابقاً ، وعلى الأخص الأحلام التي تعبر عن دوافعنا اللاشعورية تبعاً لنظرية فرويد في الأحلام . ولا يتعرض علماء النفس المحدثون للأحلام التنبئية ، أو الرؤى الصادقة التي تكشف عن أمور ستحدث في المستقبل ، بالرغم من أن هذا النوع من الرؤى يقع أحياناً لبعض الناس ، كما ورد ذكره في الديانات .

ويذكر القرآن « أضغاث الأحلام » و« الرؤيا » . وأضغاث الأحلام هي الأحلام المختلطة المضطربة الغامضة [1] . ولعل القرآن حينما ذكر أضغاث الأحلام كان يشير إلى جميع أنواع الأحلام التي تناولها علماء النفس بالبحث والتفسير ، والتي أشرنا إليها سابقاً . أما الرؤيا فهي ترد في القرآن فقط بمعنى الرؤيا الصادقة التي يلقي فيها الله سبحانه وتعالى إلى أنبيائه ورسله وغيرهم من الناس بوحي أو إلهام معين ، أو يخبرهم بأمر سيحدث في المستقبل . ومن أمثلة ذلك ما ورد في القرآن عن رؤيا إبراهيم أنه يذبح ابنه اسماعيل عليهما السلام .

« فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ۝ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۝ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ » [2]

ومن أمثلة الرؤى التي وردت في القرآن أيضاً رؤيا يوسف عليه السلام :

---

(١) في المعجم الوسيط : « أضغاث الأحلام : ما كان منها ملتبساً مضطرباً يصعب تأويله » .

(٢) الصافات : ١٠٢ ـ ١٠٥ .

« إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ۝ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ »[1]

وقد تحققت هذه الرؤيا فيما بعد حينما استدعى يوسف عليه السلام أبويه وإخوته ، فلما دخلوا إليه سجدوا له سجود تحية وإكبار .

« وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا .. »[2]

وذكر القرآن أيضاً الرؤيا التي رأى فيها الرسول صلوات الله وسلامه عليه في العام الذي سار فيه إلى الحديبية أنه دخل مكة وطاف بالبيت العتيق :

« لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ .. »[3]

وذكر القرآن أيضاً الرؤيا التي رآها كل من الفتيين اللذين دخلا السجن مع يوسف عليه السلام ، وقيامه بتفسيرهما[4] . كما ذكر الرؤيا التي رأى فيها ملك مصر :

« .. سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ .. »[5]

وتفسير يوسف عليه السلام لها[6] .

---

(١) يوسف ٤ ، ٥ .
(٢) يوسف : ١٠٠ .
(٣) الفتح : ٢٧ .
(٤) يوسف : ٣٦ ، ٤١ .
(٥) يوسف : ٤٣ .
(٦) يوسف : ٤٧ ـ ٤٩ .

وعن أبي قتادة أن النبي صلوات الله عليه وسلامه قال : « الرؤيا الصالحة » ـ وفي رواية « الرؤيا الحسنة من الله ، والحلم من الشيطان . . . . الحديث »[١] ، وأنه قال أيضاً : « رؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة »[٢] .

وكان لما ذكره القرآن عن الرؤيا تأثير كبير في آراء المفكرين المسلمين ففسروها بما جاء في القرآن عنها . ذكر الألوسي في تفسيره : «أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن سليم بن عامر أن عمر بن الخطاب قال : العجب من رؤيا الرجل أنه يبيت فيرى الشيء لم يخطر له على بال فتكون رؤياه كأخذ باليد . ويرى الرجل الرؤيا فلا تكون رؤياه شيئاً . فقال عليّ كرّم الله تعالى وجهه : أفلا أخبرك بذلك يا أمير المؤمنين ؟ يقول الله تعالى : (الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى) . فالله تعالى يتوفى الأنفس كلها ، فما رأت وهي عنده سبحانه في السماء فهو الرؤيا الصادقة ، وما رأت إذا أرسلت إلى أجسادها فهي الكاذبة »[٣] .

ونجد تأثير القرآن واضحاً في تفسير الفلاسفة المسلمين للرؤيا . فابن سينا ، مثلاً ، يفسر الرؤيا الصادقة بأنها تحدث نتيجة اتصال النفس بالملكوت أو بالملأ الأعلى أثناء النوم (العقل الفعّال في نظريته) ، وتلقى الوحي أو الإلهام عنه ، أما أضغاث الأحلام فهي ، في رأيه ، ناشئة عن تأثير الإحساسات البدنية[٤] .

وذهب حديثاً بعض الباحثين في أسرار القوة الروحية للإنسان إلى أن روح الإنسان تنسحب أثناء النوم وتقوم بسياحات إلى أماكن شتى . وهم يفسرون الأحلام بما تراه الروح أثناء سياحتها والإنسان نائم[٥] . ويتفق هذا الرأي مع الرأي الذي قال

---

(١) رواه الشيخان (مصطفى سعيد الخن وآخرون : نزهة المتقين ، شرح رياض الصالحين لأبي زكريا محيي النووي ، ط٧ . بيروت : مؤسسة الرسالة ، ١٩٨٥ ، جـ١ ، الحديث رقم / ٨٤٢) .

(٢) رواه الشيخان وأبو داود والترمذي (منصور على ناصف ، مرجع سابق ، جـ ٤ ، ص ٣٠٤) .

(٣) أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي : روح المعاني في تفسير القرآن . القاهرة المطبعة الأميرية ببولاق ، ١٣٠١ هـ ، جـ٢ ، ص ٤٠٩ .

(٤) محمد عثمان نجاتي : الإدراك الحسي عند ابن سينا ، مرجع سابق ، ص ٢١٧ .

(٥) عبد الرازق نوفل : القرآن والعلم الحديث . بيروت : دار الكتاب العربي، ١٩٧٣ ، ص ٩٦ ـ ٩٩ .

به المفكرون المسلمون من قبل من حيث انطلاق الروح من الجسم أثناء النوم ، ولكنه يختلف عنه من حيث أن المفكرين المسلمين يرون أن الروح قد تصل أثناء انطلاقها إلى الملأ الأعلى فتتلقى من هناك الوحي والإلهام في صورة رؤيا صادقة ؛ وقد لا تصل إلى الملأ الأعلى ، فيكون ما تراه ، وخاصة وهي متأثرة بالإحساسات البدنية أضغاث أحلام . أما الباحثون الروحيون المحدثون فلا يتعرضون للتفرقة بين أضغاث الأحلام والرؤيا الصادقة كما فعل المفكرون المسلمون .

الفصل التاسع

الشخصيّة في القرآن

عندما يفكر الناس في الشخصية ، فإنهم يرونها عادة باعتبارها التأثير الذي يحدثه الفرد في الآخرين ، أو يرونها باعتبارها أهم الانطباعات التي يتركها الفرد في الآخرين كأن يرونه مثلاً شخصاً عدوانياً أو شخصاً مسالماً . أما علماء النفس فإنهم حينما يدرسون الشخصية فإنهم ينظرون إليها باعتبارها الأبنية والعمليات النفسية الثابتة التي تنظم خبرات الفرد وتشكل أفعاله واستجاباته للبيئة التي يعيش فيها ، والتي تميزه عن غيره من الناس . وبعبارة أخرى ، إن الشخصية هي التنظيم الدينامي في الفرد لتلك الأجهزة الجسمية والنفسية التي تحدد طابعه الفريد في توافقه مع بيئته . فعلماء النفس حينما يدرسون الشخصية ، ينظرون إلى الفرد ككل متكامل ، يعمل ويستجيب كوحدة تنتظم وتتفاعل فيها جميع أجهزته البدنية والنفسية ، وتحدد سلوكه واستجاباته بطريقة يتميز بها عن غيره من الناس[1] .

وقد جاء في القرآن الكريم وصف للشخصية الإنسانية وسماتها العامة التي يتميز بها الإنسان عن غيره من مخلوقات الله ، كما جاء فيه أيضاً وصف لبعض الأنماط أو النماذج العامة للشخصية الإنسانية التي تتميز ببعض السمات الرئيسية ، وهي أنماط عامة وشائعة نكاد نراها حتى اليوم في مجتمعنا ، وفي جميع المجتمعات الإنسانية بعامة .

ونجد في القرآن أيضاً وصفاً للشخصية السوية ، والشخصية غير السوية ، ووصفاً للعوامل المكونة لكل من السواء وعدم السواء في الشخصية .

---

(١) لمعرفة مزيد عن تعريف الشخصية انظر : ريتشارد س . لازاروس : الشخصية ، ترجمة سيد محمد غنيم ، ومراجعة محمد عثمان نجاتي : بيروت : دار الشروق ، ١٩٨١ ، ص ١٩ - ٢٢ ؛ محمد عثمان نجاتي : علم النفس في حياتنا اليومية ، مرجع سابق ، ص ٣٩٢ - ٣٩٦ .

ولكي نستطيع أن نفهم شخصية الإنسان فهماً دقيقاً وصحيحاً يجب أن ندرس بدقة العوامل المختلفة التي تحدد الشخصية . وحينما يدرس علماء النفس المحدثون هذه العوامل المحددة للشخصية ، فإنهم يدرسون عادة العوامل البيولوجية والاجتماعية والثقافية . وهم يهتمون عادة في دراسة العوامل البيولوجية بدراسة أثر الوراثة والتكوين البدني وطبيعة تكوين الجهاز العصبي والجهاز الغدي . وحينما يدرسون تأثير العوامل الاجتماعية على الشخصية فإنهم يهتمون عادة بدراسة خبرات الطفولة وبخاصة في الأسرة ، وطريقة معاملة الوالدين ، كما يهتمون أيضاً بدراسة تأثير الثقافات الفرعية ، والطبقات الاجتماعية ، والمؤسسات الاجتماعية المختلفة ، وجماعات الرفاق والأصدقاء على شخصية الفرد . إن العوامل المحددة للشخصية ، إذن ، يمكن تصنيفها إلى مجموعتين رئيسيتين : عوامل وراثية ، وهي عوامل منبعثة من تكوين الفرد ذاته ؛ وعوامل بيئية ، وهي عوامل منبعثة من البيئة الخارجية الاجتماعية والثقافية . وحينما يدرس علماء النفس المحدثون محددات الشخصية المنبعثة من طبيعة تكوين الفرد ذاته ، فإنهم يقصرون اهتمامهم على دراسة العوامل الجسمية البيولوجية فقط ، متناسين أو مغفلين الجانب الروحي من الإنسان ، وذلك تمشياً مع أسلوبهم في البحث العلمي الذي يقتصر على دراسة ما يمكن ملاحظته وإخضاعه للبحث في المختبرات العلمية . ولذلك يهمل علماء النفس المحدثون دراسة الجانب الروحي من الإنسان ، وأثره على الشخصية .

ولعل لعلماء النفس المحدثين الذين يتبعون في بحوثهم المنهج الموضوعي التجريبي بعض العذر في عدم تعرضهم للجانب الروحي في الإنسان ، وذلك لأنهم لا يعرفون كيف يتناولونه بالبحث العلمي الموضوعي . غير أن عجزهم عن تناول الجانب الروحي في الإنسان بالبحث العلمي الموضوعي لا ينبغي أن يؤدي بهم إلى إغفال ذلك الجانب الروحي من الشخصية إغفالاً تاماً في محاولتهم فهم شخصية الإنسان ، وفهم أسباب سلوكه سواء في سوائه أو انحرافه . إن إغفال علماء النفس المحدثين للجانب الروحي من الإنسان في دراستهم للشخصية قد أدى إلى قصور واضح في فهمهم للإنسان ، وفي محاولة معرفتهم للعوامل المحددة للشخصية السوية وغير السوية ، كما أدى ذلك أيضاً إلى عدم اهتدائهم إلى الطريقة المثلى في العلاج النفسي لاضطرابات الشخصية . وقد لاحظ إريك فروم المحلل النفسي قصور علم النفس

الحديث وعجزه عن فهم الإنسان فهماً صحيحاً بسبب إهماله دراسة الجانب الروحي في الإنسان . يبدو ذلك واضحاً في قوله : « ... إن التقليد الذي يعد السيكولوجيا دراسة لروح الإنسان دراسة تهتم بفضائله وسعادته – هذا التقليد نبذ تماماً ، وأصبح علم النفس الأكاديمي في محاولته لمحاكاة العلوم الطبيعية والأساليب المعملية في الوزن والحساب – أصبح هذا العلم يعالج كل شيء ما عدا الروح ، إذ حاول هذا العلم أن يفهم مظاهر الإنسان التي يمكن فحصها في المعمل ، وزعم أن الشعور ، وأحكام القيمة ، ومعرفة الخير والشر ، ما هي إلا تصورات ميتافيزيقية تقع خارج مشكلات علم النفس . وكان اهتمامه ينصب في أغلب الأحيان على مشكلات تافهة تتمشى مع منهج علمي مزعوم ، وذلك بدلاً من أن يضع مناهج جديدة لدراسة مشكلات الإنسان الهامة . وهكذا أصبح علم النفس علماً يفتقر إلى موضوعه الرئيسي وهو الروح ، وكان معنياً بالميكانيزمات ، وتكوينات ردود الأفعال ، والغرائز ، دون أن يعنى بالظواهر الإنسانية المميزة أشد التميز للإنسان : كالحب والعقل والشعور والقيم »[1] .

إننا لا نستطيع أن نفهم شخصية الإنسان فهماً واضحاً بدون أن نفهم حقيقة جميع العوامل المحددة للشخصية، سواء كانت بيولوجية أو روحية، أو اجتماعية وثقافية . أما الاقتصار على دراسة العوامل الجسمية البيولوجية ، والعوامل الاجتماعية والثقافية فقط ، وإهمال أثر الجانب الروحي في الإنسان ، فإن من شأن ذلك أن يعطينا صورة غير واضحة وغير دقيقة للشخصية .

تكوين الإنسان :

لقد أخبرنا القرآن كيف خلق الله تعالى الإنسان من مادة وروح . فبعد أن مرّ التراب بعدة مراحل من التكوين : من تراب إلى طين ، إلى حمأٍ مسنون ، إلى صلصال كالفخار[2] ، نفخ الله تعالى فيه من روحه فخُلِق آدم عليه السلام .

---

(١) إريك فروم : مرجع سابق ، ص ١١ .

(٢) أشار الله تعالى إلى مراحل خلق آدم في مواضع مختلفة من القرآن . فقال تعالى في موضع إنه خلقه من تراب ، وفي موضع آخر من طين وهو ينشأ من اختلاط التراب بالماء ، وفي موضع آخر من حمأ مسنون وهو الطين الذي يتغير بفعل الهواء ، وفي موضع آخر من طين لازب وهو الطين المتماسك الذي يمكن تشكيله ، وفي موضع آخر من صلصال من حمأ مسنون وهو الطين الذي يبس وجف ويسمع له صوت =

«إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۝ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ»[1]

«وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ»[2]

وجاءت كلمة «الروح» في القرآن بعدة معانٍ[3] ، وإن معنى الروح الذي ورد في الآيات التي تشير إلى خلق آدم هو : «روح منه تعالى يكون به استعداد الإنسان لمعالي الصفات ، وموالاة الحق»[4] . «هو عنصر علوي يتضمن استعداد الإنسان لتحقيق معالي الأمور ، وأقدس الصفات ... فهو الذي يؤهله للارتفاع فوق مستوى الحيوان ، ويقرر له أهدافه وغايته العليا في الحياة ، ويرسم له خطوط منهاجه ، ويضيف إلى بشريته النزوع إلى مصدر القيم والمعارف التي تجعل له حقيقة إنسان»[5] .

وبهذا النوع من التكوين يتميز الإنسان عن سائر المخلوقات . فهو يشارك الحيوان في معظم الخصائص الجسمية وما يتطلبه حفظ الذات والبقاء من دوافع وانفعالات وقدرة على الإدراك والتعلم ، ولكنه يتميز عن الحيوان بخصائص روحه التي تجعله ينزع إلى معرفة الله سبحانه وتعالى وعبادته ، والتشوق إلى الفضائل والمثل العليا التي ترتفع به إلى مستويات عالية من الكمال الإنساني ، ولهذا كان الإنسان أهلاً لخلافة الله في الأرض . وباختصار ، نستطيع أن نقول إن ما يميز الإنسان عن الحيوان هو قبسة الروح من الله سبحانه وتعالى التي خصته بالاستعداد لمعرفة الله

= صلصلة إذا قرع ، وفي موضع آخر من صلصال كالفخار وهو الطين الذي وصل إلى تمام جفافه كما يحدث من تحويل الطين إلى فخار بفعل النار . أنظر : أبو القاسم الحسن بن محمد المفضل الراغب الأصفهاني : مرجع سابق ، ص ١٧ ، ١٨ ؛ ومحمد متولي الشعراوي : مرجع سابق ، ص ١١٧ .

(١) ص : ٧١ ، ٧٢ .

(٢) الحجر : ٢٨ ، ٢٩ .

(٣) «الروح» جاء في القرآن بعدة معان شرحها ابن القيم في كتابه «الروح» ، وشرحها عنه بتصرف البهي الخولي في كتابه : «آدم عليه السلام» الذي سبق أن أشرنا إليه ، ص ٢١ – ٢٤ .

(٤) البهي الخولي : مرجع سابق ، ص ٢٢ .

(٥) المرجع السابق ، ص ٣٢ ، ٣٣ .

والإيمان به وعبادته ، وتحصيل العلوم وتسخيرها في عمارة الأرض ، والتمسك بالقيم والمثل العليا في سلوكه الفردي والاجتماعي .

ولا توجد الروح والمادة فى الإنسان منفصلتين أو مستقلتين إحداهما عن الأخرى ، وإنما هما ممتزجتان معاً في وحدة متكاملة متناسقة . وتتكون من هذا المزيج المتكامل المتناسق ذات الإنسان وشخصيته . ونحن لا نستطيع أن نفهم شخصية الإنسان فهماً دقيقاً إلا بالنظر إلى هذا الكيان الإنساني بأكمله ، المكوّن من امتزاج عنصري المادة والروح .

الصراع النفسي :

إن الإنسان يتضمن في شخصيته صفات الحيوان المتمثلة في الحاجات البدنية التي يجب إشباعها من أجل حفظ الذات وبقاء النوع ، كما يتضمن أيضاً صفات الملائكة المتمثلة في تشوقه الروحي إلى معرفة الله سبحانه وتعالى والإيمان به وعبادته وتسبيحه . وقد يحدث بين هذين الجانبين من شخصية الإنسان صراع ، فتجذبه أحياناً حاجاته وشهواته البدنية ، وتجذبه أحياناً أخرى حاجاته وأشواقه الروحية ، ويشعر الإنسان بالصراع في نفسه بين هذين الجانبين من شخصيته . ويشير القرآن إلى حالة الصراع النفسى بين الجانبين المادى والروحى فى الإنسان فى قوله تعالى :

« فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ »(١)

وتشير عبارة « ونهى النفس عن الهوى » إلى ما يشعر به الإنسان من صراع نفسى بين الميل إلى ما تهواه النفس من الملذات الحسية ومغريات الحياة الدنيوية ، ومقاومته الانسياق وراء أهوائه التى تنحرف به بعيداً عن منهج الحياة المستقيمة الذى وضعه الله تعالى لعباده . فمن تغلبه أهواؤه الدنيوية وشهواته الحسية وينسى طاعة ربه ، فإن مصيره

---

(١) النازعات : ٣٧ – ٤١ .

إلى جهنم ، وأما من يقاوم أهواءه ، ويكفّ نفسه عن الانسياق وراءها ، ويخاف معصية ربه ، ويسير في حياته وفق المنهج الذي وضعه الله تعالى به ، فإن الجنة هي مأواه .

ويشير القرآن أيضاً إلى الصراع النفسي بين الجانبين المادي والروحي في الإنسان في وصفه تعالى لخروج قارون على قومه في زينته مما جعل بعض الناس يتمنون أن يكون لهم ما لقارون من ثروة ، فيرد عليهم البعض الآخر بأن ما عند الله خير وأبقى .

« فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ »[1]

ويشير القرآن أيضاً إلى الصراع بين الجانبين المادي والروحي في الإنسان في وصفه تعالى لانفضاض بعض المسلمين من حول النبي صلوات الله عليه وسلامه حينما سمعوا بأنباء وصول قافلة محملة بالمؤونة إلى المدينة .

« وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ »[2]

ولعل مشيئة الله سبحانه وتعالى قد اقتضت أن يعاني الإنسان – من بين ما يعانيه من مشاق الحياة – هذا الصراع النفسي بين مطالبه البدنية ومطالبه الروحية .

« لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ »[3]

ولعل مشيئة الله تعالى قد اقتضت أيضاً أن يكون أسلوب الإنسان في حل هذا الصراع هو الاختبار الحقيقي والأساسي الذي وضعه الله تعالى للإنسان في هذه الحياة . فمن استطاع أن يوفق بين الجانبين المادي والروحي في شخصيته ، وأن يحقق بينهما أكبر قدر مستطاع من التناسق والتوازن ، فقد نجح في هذا الاختبار ،

---

(١) القصص : ٧٩ ، ٨٠ .

(٢) الجمعة : ١١ .

(٣) البلد : ٤ .

واستحق أن يثاب على ذلك بالسعادة في الدنيا وفي الآخرة . وأما من انساق وراء شهواته البدنية وأغفل المطالب الروحية فقد فشل في هذا الاختبار ، واستحق أن يجازى على ذلك بالشقاء في الدنيا وفي الآخرة .

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ »[1]

« إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ »[2]

« فَذَكِّرۡ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ ۝ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخۡشَىٰ ۝ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلۡأَشۡقَى ۝ ٱلَّذِي يَصۡلَى ٱلنَّارَ ٱلۡكُبۡرَىٰ ۝ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ ۝ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝ وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ۝ بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ۝ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ »[3]

« ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا .. »[4]

ولقد شاءت رحمة الله تعالى وحكمته أن يمدّ الإنسان بجميع الإمكانات اللازمة لحل هذا الصراع ، واجتياز هذا الاختبار الصعب ، بأن وهبه العقل ليميز به بين الخير والشر ، وبين الحق والباطل . كما أمده سبحانه بحرية الإرادة والاختيار ليستطيع أن يبت في أمر هذا الصراع ، وأن يختار الطريق الذي يريده لحل هذا الصراع . وإن حرية إرادة الإنسان ، وحريته في اختيار الطريق الذي يحل به هذا الصراع إنما يمثلان أساس مسؤوليته وحسابه .

---

(١) المنافقون : ٩ .

(٢) التغابن : ١٥ .

(٣) الأعلى : ٩ – ١٧ .

(٤) الملك : ٢ .

« وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ »[1]

« إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا »[2]

« وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا »[3]

« قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا .. »[4]

« وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ .. »[5]

« مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ »[6]

« كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ۝ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ۝ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ۝ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ۝ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ۝ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ۝ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ۝ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ۝ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ۝ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ۝ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ۝ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ۝ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ۝ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ۝ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ »[7]

إن في طبيعة تكوين الإنسان ، إذن ، استعداداً لفعل كل من الخير والشر ، استعداداً لاتباع أهوائه وشهواته البدنية ، والاستغراق في الاستمتاع بملذاته الحسية ورغباته الدنيوية ، واستعداداً للتسامي إلى أفق الفضيلة والتقوى والمثل الإنسانية

---

(١) البلد : ١٠ .
(٢) الإنسان : ٣ .
(٣) الشمس : ٧ ـ ١٠ .
(٤) الأنعام : ١٠٤ .
(٥) الكهف : ٢٩ .
(٦) فصلت : ٤٦ .
(٧) المدثر : ٣٢ ـ ٤٧ .

العليا ، والعمل الصالح ، وما يحققه ذلك من سكينة نفسية وسعادة روحية . ومن الطبيعي أن تتضمن طبيعة الإنسان وقوع الصراع بين الخير والشر ، بين الفضيلة والرذيلة ، بين طاعة الله ومعصيته . وإن الاختبار الحقيقي للإنسان في هذه الحياة هو ما تتجه إليه إرادته ، وما يقع عليه اختياره . هل سيختار طريق الخير أم طريق الشر ، طريق طاعة الله أم معصيته ؟ هل سينساق الإنسان وراء أهوائه وشهواته ومتع الحياة الدنيوية ، ويغفل عن ذكر الله ، وينسى اليوم الآخر ، أم هل سيتحكم في أهوائه وشهواته ، ويقوم بتحقيق التوازن بين مطالبه البدنية ومطالبه الروحية ؟

وحينما يختار الإنسان الملذات الدنيوية ، وينساق وراء أهوائه وشهواته ، وينسى ربه واليوم الآخر ، إنما يصبح في معيشته أشبه بالحيوان ، بل أضل لأنه لم يستخدم عقله الذي ميزه الله تعالى به على الحيوان .

« أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ۝ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا »[1]

والإنسان الذي يعيش هذا النوع من المعيشة يكون غير ناضج الشخصية ويكون أشبه بالطفل الذي لا يهمه إلا إشباع حاجاته ورغباته ، ولم تقو إرادته بعد ، ولم يتعلم بعد كيف يتحكم في أهوائه وشهواته ، فينساق وراء إشباعها ، ويصبح خاضعاً لتوجيه « نفسه الأمّارة بالسوء » .

« وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ »[2]

وفي هذا المعنى جاء في الأثر : « أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك ، فمن أدبها أو قمعها آمن ظلمها »[3] .

---

(١) الفرقان : ٤٣ ، ٤٤ .

(٢) يوسف : ٥٣ .

(٣) أبو القاسم الحسن بن محمد المفضل الراغب الأصفهاني : مرجع سابق ، ص ٨٨ ، ٨٩

أما الإنسان الذى يكون فى مرتبة أعلى من الكمال الإنسانى ، بحيث يكون ضميره مستيقظاً ، فيستنكر ضعف إرادته وانقياده لأهوائه وشهواته وملذات الحياة الدنيوية مما يوقعه فى الخطيئة والمعصية ، فيشعر بالذنب ، ويلوم نفسه على ما فرط منها ، ويتجه إلى الله تعالى مستغفراً تائباً ، فإنه يكون فى هذه الحالة تحت تأثير « النفس اللوامة » .

« لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۝ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ »[1]

وإذا أخلص الإنسان فى تقربه لله تعالى بالعبادات والأعمال الصالحة ، والابتعاد عن كل ما يغضب الله ، وتحكم تحكماً كاملاً فى أهوائه وشهواته ، وقام بتوجيهها إلى الإشباع بالطريقة التى حددها الشرع فقط ، وحقق التوازن التام بين مطالبه البدنية ومطالبه الروحية ، فإنه يكون فى أعلى مرتبة من الكمال الإنسانى ، وهى المرتبة التى تكون فيها نفس الإنسان فى حالة اطمئنان وسكينة ، وينطبق عليها وصف « النفس المطمئنة » التى ذكرها القرآن فى قوله تعالى :

« يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝ فَٱدْخُلِى فِى عِبَـٰدِى ۝ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى »[2]

ويمكن أن نتصور هذه المفاهيم الثلاثة للنفس ، وهي النفس الأمارة بالسوء ، والنفس اللوامة ، والنفس المطمئنة على أنها حالات تتصف بها شخصية الإنسان في مستويات مختلفة من الكمال الإنساني التي تمر بها أثناء صراعها الداخلي بين الجانبين المادي والروحي من طبيعة تكوينها . فحينما تكون شخصية الإنسان في أدنى مستوياتها الإنسانية بحيث تسيطر عليها الأهواء والشهوات والملذات البدنية والدنيوية ، فإنها تكون فى حالة ينطبق عليها وصف النفس الأمارة بالسوء . وحينما تكون الشخصية فى أعلى مستويات الكمال الإنسانى بحيث تكون متمسكة بتقوى الله تعالى وطاعته ، ومتحكمة فى أهوائها وشهواتها ، ومحققة التوازن التام بين المطالب البدنية والروحية ، فإنها تكون فى الحالة التى ينطبق عليها وصف النفس المطمئنة . وبين هذين المستويين مستوى آخر متوسط بينهما يحاسب فيه الإنسان نفسه على ما يرتكب من أخطاء ، ويسعى جاهداً

---

(١) القيامة : ١ ، ٢ .

(٢) الفجر : ٢٧ — ٣٠ .

إلى الامتناع عن ارتكاب ما يغضب الله ويسبب له تأنيب الضمير ، ولكنه لاينجح دائماً في مسعاه ، فقد يضعف أحياناً ويقع في الخطيئة . ويطلق على الشخصية في هذا المستوى النفس اللوامة .

ويجدر بنا أن نشير إلى أنه بعد نزول القرآن بنحو أربعة عشر قرناً من الزمان جاء سيجمند فرويد مؤسس مدرسة التحليل النفسي بنظرية في الشخصية ميز فيها ثلاثة أقسام للنفس يبدو في بعض وظائفها بعض أوجه الشبه بمفاهيم النفس الأمارة بالسوء ، والنفس اللوامة ، والنفس المطمئنة الواردة في القرآن ، غير أنه توجد في الحقيقة اختلافات كبيرة بين هذه المفاهيم الثلاثة للنفس في القرآن وبين أقسام النفس الثلاثة في نظرية فرويد سنشير إليها فيما بعد . ذهب فرويد إلى أن للنفس ثلاثة أقسام هي : الهو ، والأنا ، والأنا الأعلى [1] . « والهو » في رأي فرويد هو ذلك الجزء من النفس الذي يحوي الغرائز التي تنبعث من البدن . وهو يطيع « مبدأ اللذة » ، ويهدف دائماً إلى الإشباع من غير مراعاة للمنطق أو الأخلاق أو الواقع . والهو ، بهذا المعنى ، يبدو أنه يشبه مفهوم «النفس الأمارة بالسوء » .

و« الأنا الأعلى » هو ذلك الجزء من النفس الذي يتكون من التعاليم التي يلقاها الفرد من والديه ومدرسيه ومن قيم الثقافة التي ينشأ فيها ، ويصبح قوة نفسية داخلية تحاسب الفرد وتراقبه وتنقده وتهدده بالعقاب ، وهو ما يعرف عادة بالضمير . ويرى فرويد أن الأنا الأعلى يمثل ما هو سامٍ في الطبيعة الإنسانية ، وهو ، بهذا المعنى ، يبدو أنه يشبه مفهوم « النفس اللوامة » .

و« الأنا » هو ذلك الجزء من النفس الذي يقبض على زمام الرغبات الغريزية المنبعثة من الهو ويسيطر عليها ، فيسمح بإشباع ما يشاء منها ، ويؤجل ما يرى تأجيله ، ويكبت ما يرى ضرورة كبته مراعياً « مبدأ الواقع » أو العالم الخارجي بما يتضمنه ذلك من قوانين وقيم وأخلاق وتعاليم دينية . ويقوم الأنا في رأي فرويد بالتوفيق بين الهو ،

---

(١) سيجمند فرويد : الأنا والهو ، ترجمة محمد عثمان نجاتي ، ط ٤ ، بيروت : دار الشروق ، ١٩٨٢ ، ص ١٤ – ١٧ ؛

سيجمند فرويد : معالم التحليل النفسي ، ترجمة محمد عثمان نجاتي ، ط ٥ ، بيروت : دار الشروق ، ١٩٨٣ ، ص ٤٦ –

والواقع أو العالم الخارجي ، والأنا الأعلى ، بحيث يسمح بإشباع زغباته الغريزية في الحدود التي يسمح بها الواقع ، ويحدّ من تطرف الأنا الأعلى بحيث لا يجعله يسرف في النقد والتهديد بالعقاب بدون مبرر معقول . وإذا نجح الأنا في وظيفته التوفيقية أمكن أن يتحقق للإنسان الاتزان والسواء والصحة النفسية . وعلى ذلك ، فإنه يبدو وجود شبه بين النتيجة التي يؤدي إليها نجاح الأنا في وظيفته ومايحققه للإنسان من إتزان وسعادة ، وبين حالة «النفس المطمئنة» التي يصل إليها الإنسان بالتغلب على أهوائه ، وبتحقيق التوازن بين مطالبه البدنية ومطالبه الروحية ، مراعياً في ذلك «مبدأ الواقع» الذي يفرضه نظام الحياة في المجتمع المسلم من القيام بالعبادات المفروضة ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والعمل الصالح ، واتباع قواعد الأخلاق الإسلامية .

وفي الحقيقة يوجد اختلاف كبير بين هذه المفاهيم الثلاثة للنفس كما وردت في القرآن وبين أقسام النفس الثلاثة في نظرية فرويد . فمفاهيم النفس الأمارة بالسوء ، والنفس اللوامة ، والنفس المطمئنة حالات مختلفة تتصف بها النفس أثناء صراعها الداخلي بين الجانب المادي والجانب الروحي في شخصية الإنسان ، وهي ليست أقساماً مختلفة للنفس ، كما أنها لاتتكون أثناء مراحل نمو معينة يمر بها الإنسان . أما مفاهيم « الهو » ، و « الأنا » ، و « الأنا الأعلى » فهي ، في نظرية فرويد ، أقسام مختلفة للنفس ، كما أنها تتكون في مراحل مختلفة من نمو الطفل . « فالهو » هو نفس الطفل عقب ميلاده مباشرة ، إذ يكون الطفل واقعاً كلية تحت تأثير متطلباته الغريزية . ثم تحت تأثير العالم الخارجى يبدأ يتكون من « الهو » جزء متميز عنه هو « الأنا » وهو الذي يقوم بالتحكم في الغرائز المنبعثة من « الهو » مراعياً مقتضيات الواقع والعالم الخارجي . ومن التعاليم والنواحي التي يتلقاها الطفل من والديه والثقافة التي ينشأ فيها يتكون « الأنا الأعلى » ، وهو الضميرالذي يحاسبه ويلومه ويؤنبه علي مايقوم به من أخطاء . ويقوم بين هذه الأقسام الثلاثة صراع يحاول فيه الأنا أن يوفق بين متطلبات الهو والأنا الأعلى والعالم الخارجي . فإذا نجح في ذلك كان الإنسان سوياً ومتمتعاً بالصحة النفسية .

وبينما يقع الصراع النفسي في نظرية فرويد بين أقسام النفس الثلاثة ، فإنه يقع ،

وفقاً لتصوير القرآن لطبيعة تكوين الإنسان ، بين الجانب المادي والجانب الروحي من شخصية الإنسان . وتنشأ تبعاً لنتيجة هذا الصراع حالات النفس الثلاث : النفس الأمارة بالسوء ، والنفس اللوامة ، والنفس المطمئنة .

التوازن في الشخصية :

لقد أشرنا من قبل إلى أن الحل الأمثل للصراع بين الجانبين البدني والروحي في الإنسان هو التوفيق بينهما ، بحيث يقوم الإنسان بإشباع حاجاته البدنية في الحدود التي أباحها الشرع ، ويقوم في الوقت نفسه بإشباع حاجاته الروحية . ومثل هذا التوفيق بين حاجات البدن وحاجات الروح يصبح أمراً ممكناً إذا ما التزم الإنسان في حياته التوسط والاعتدال ، وتجنب الإسراف والتطرف سواء في إشباع دوافعه البدنية أو الروحية . فليس في الإسلام رهبانية تقاوم إشباع الدوافع البدنية وتعمل على كبتها ، كما ليس في الإسلام إباحية مطلقة تعمل على الإشباع التام للدوافع البدنية ، وإنما ينادي الإسلام بالتوفيق بين دوافع كل من البدن والروح ، واتباع طريق وسط يحقق التوازن بين الجانبين المادي والروحي في الإنسان ، كما سبق أن أشرنا إلى ذلك أثناء كلامنا عن الصراع النفسي في الفصل الأول الخاص بالدوافع في القرآن . ويشير القرآن إلى ضرورة تحقيق هذا التوازن في الشخصية بقوله :

« وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا .. »[1]

وفي هذا المعنى قال الرسول عليه الصلاة والسلام : « ليس خيركم من عمل لدنياه دون آخرته ، ولا من عمل لآخرته وترك دنياه ، وإنما خيركم من عمل لهذه ولهذه »[2] .

وحينما يتحقق هذا التوازن بين البدن والروح تتحقق ذاتية الإنسان في صورتها الحقيقية الكاملة والتي تمثلت في شخصية النبي صلوات الله عليه وسلامه الذي توازنت فيه القوة الروحية الشفافة ، والحيوية الجسمية الفياضة ، فكان يعبد ربه حق

---

(١) القصص : ٧٧ .

(٢) محمد جواد مغنية : فلسفة الأخلاق في الإسلام ، بيروت : دار العلم للملايين ، ١٩٧٧ ، ص١٩٤ ، ١٩٥ .

عبادته في صفاء وخشوع كاملين ، كما كان يعيش حياته البشرية كغيره من البشر يشبع حاجاته البدنية في الحدود التي رسمها الشرع ، ولذلك فهو يمثل الإنسان الكامل ، والشخصية الإنسانية النموذجية الكاملة التي توازنت فيها جميع القوى الإنسانية البدنية منها والروحية[1] .

والتوازن في الشخصية الإنسانية بين البدن والروح ليس إلا مثالاً ،للتوازن الموجود في الكون كله . فقد خلق الله تعالى كل شيء بمقدار وميزان . ولقد سبق أن أشرنا عند كلامنا على الدوافع الفطرية في الفصل الأول إلى فكرة الاتزان الحيوي في البدن ، وإلى وظيفة الدوافع الفطرية في إبقاء البدن في حالة ثابتة من الاتزان ، وهو أمر ضروري لحفظ الذات والبقاء . غير أن الاتزان في الإنسان ليس قاصراً على اتزانه البيولوجي فقط ، وإنما يشمل أيضاً شخصيته بأكملها ، إنه يشمل كذلك التوازن بين البدن والروح .

الشخصية السوية :

يتبين لنا مما تقدم أن الشخصية السوية في الإسلام هي الشخصية التي يتوازن فيها البدن والروح ، وتشبع فيها حاجات كل من البدن والروح✔إن الشخصية السوية هي التي تعنى بالبدن وصحته وقوته ، وتشبع حاجاته في الحدود التي رسمها الشرع ، والتي تتمسك في نفس الوقت بالإيمان بالله ، وتؤدي العبادات ، وتقوم بكل ما يرضي الله تعالى ، وتتجنب كل ما يغضبه . فالشخص الذي ينساق وراء أهوائه وشهواته شخص غير سوي . وكذلك ، فإن الشخص الذي يكبت حاجاته البدنية ويقهر جسمه ويضعفه بالرهبانية المفرطة والتقشف الشديد ، وينزع إلى إشباع حاجاته وأشواقه الروحية فقط ، هو أيضاً شخص غير سوي . وذلك لأن كلاً من هذين الاتجاهين المتطرفين يخالف الطبيعة الإنسانية ويعارض فطرتها ، ولذلك فلا يمكن أن يؤدي أي من هذين الاتجاهين إلى تحقيق ذاتية الإنسان الحقيقية ، كما لا يمكن أن يؤدي بها إلى بلوغ كمالها الحقيقي .

---

(١) محمد قطب : في النفس والمجتمع ، ط ٢ . القاهرة : مكتبة وهبة ، ١٩٦٢ ، ص ٦٢ ، ٦٣ .

ويتضح موقف الإسلام من ضرورة التوازن بين مطالب البدن ومطالب الروح من إنكار النبي صلى الله عليه وسلم لعمل ثلاثة من الصحابة كان أحدهم يصلى الليل كله ولا ينام ، وكان الثانى يصوم الدهر كله ولا يفطر ، وكان الثالث يعتزل النساء ولا يتزوج ، فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم : « أما أنا والله لأخشاكم لله وأتقاكم ، ولكنى أصوم وأفطر ، وأصلى وأرقد ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتى فليس منى »[1] .

أنماط الشخصية في القرآن

حاول المفكرون في عصور التاريخ المختلفة ، كما حاول علماء النفس في العصر الحديث دراسة أوجه التشابه وأوجه الاختلاف بين شخصيات الناس ، وقاموا بعدة محاولات لتصنيف الناس إلى عدة أنماط من الشخصية ، يتميز كل نمط منها بمجموعة معينة من الصفات أو السمات المميزة . وقد اتجه بعضهم إلى تصنيف الناس إلى أنماط على أساس خصائص التكوين الجسمي ، وذهبوا إلى أن الناس الذين يقعون تحت نمط من هذه الأنماط الجسمية للشخصية يتشابهون في سماتهم النفسية . واتجه البعض الآخر إلى تصنيف الناس إلى أنماط نفسية على أساس تشابههم في سماتهم النفسية[2] .

وتصنيف الناس إلى أنماط من الشخصية يقع تحت كل نمط منها الأشخاص المتشابهون في سماتهم ، إنما هي محاولة تساعد على وصف الناس وتفسير سلوكهم . فإذا قلنا ، مثلاً ، إن شخصاً معيناً ينتمي إلى نمط معين ، فإننا نستطيع بناء على ذلك وصف هذا الشخص وتفسير سلوكه ، كما نستطيع أن نتوقع نوع السلوك الذي يمكن أن يصدر منه في مواقف معينة .

---

(١) رواه الشيخان عن أنس (فتح البارى بشرح البخارى للعسقلانى ، جـ ١٩ ، الحديث رقم ٥١٩٩ ، مختصر صحيح مسلم للمنذرى ، الحديث رقم ٦٢٨) .

(٢) لمعرفة مزيد من نظريات الأنماط في الشخصية انظر : ريتشارد س . لازاروس : الشخصية ، مرجع سابق ، ص ٦٢ ـ ٦٧ ؛ محمد عثمان نجاتى : علم النفس في حياتنا اليومية ، مرجع سابق ، ص ٣٩٨ ـ ٤٥ .

ونحن نجد في القرآن تصنيفاً للناس على أساس العقيدة إلى ثلاثة أنماط هي : المؤمنون ، والكافرون ، والمنافقون . ولكل نمط من هذه الأنماط الثلاثة سماته الرئيسية العامة التي تميزه عن النمطين الآخرين . وتصنيف القرآن للناس على أساس العقيدة يتمشى مع أهداف القرآن من حيث هو كتاب عقيدة وهداية . ثم إن هذا التصنيف يشير إلى أهمية العقيدة في تكوين شخصية الإنسان ، وفي تحديد سماته المميزة له ، وفي توجيه سلوكه على نحو معين خاص يتميز به . كما يشير هذا التصنيف أيضاً إلى أن العامل الأساسي في تقييم الشخصية ، في نظر القرآن ، هو العقيدة والتقوى .

«إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ» (١)

وقد أشار القرآن إلى هذه الأنماط الثلاثة من الناس : المؤمنين ، والكافرين ، والمنافقين في مواضع كثيرة . فقد أشار إليهم ، مثلاً ، في مطلع سورة البقرة . فذكر المؤمنين في أربع آيات (٢ — ٥) ، وذكر الكافرين في آيتين (٦ ، ٧) ، وذكر المنافقين في ثلاث عشرة آية (٨ — ٢٠) ، وأشار إليهم أيضاً في سور أخرى كثيرة ، كما أفرد لكل منهم سورة سماها باسمهم هي سور «المؤمنون» ، و«الكافرون» ، و «المنافقون» (٢) .

ووصف القرآن كل نمط من هذه الأنماط الثلاثة بسمات خاصة يعرف بها ، ويتميز بها عن النمطين الآخرين من الناس . وسنحاول فيما يلي أن نذكر أهم السمات التي يتميز بها كل نمط من هذه الأنماط الثلاثة من الناس كما جاء في القرآن .

---

(١) الحجرات : ١٣ .

(٢) انظر أيضاً في هذا الموضوع : أحمد محمد فارس : النماذج الإنسانية في القرآن الكريم ، بيروت : دار الفكر (د ، ت) ، ص ٦١ — ٨٥ ؛ عبد الغني عبود : الإنسان في الإسلام والإنسان المعاصر ، القاهرة : دار الفكر العربي ، ١٩٧٨ ، ص ١٥٢ — ١٥٨ .

المؤمنون :

ذكر الله سبحانه وتعالى المؤمنين في كثير من الآيات في معظم سور القرآن ، ووصف سلوكهم في كثير من مجالات حياتهم : في عقيدتهم ، وعبادتهم ، وأخلاقهم ، وعلاقاتهم مع غيرهم من الناس ، وفي علاقاتهم الأسرية ، وفي حبهم لطلب المعرفة ، وفي حياتهم العملية وسعيهم في طلب الرزق ، وفي سماتهم البدنية .

فإذا جمعنا سمات المؤمنين التي وردت في القرآن وحاولنا تصنيفها لأمكن أن نصنفها إلى تسعة مجالات عامة رئيسية من مجالات السلوك هي :

١ – سمات تتعلق بالعقيدة .
٢ – سمات تتعلق بالعبادات .
٣ – سمات تتعلق بالعلاقات الاجتماعية .
٤ – سمات تتعلق بالعلاقات الأسرية .
٥ – سمات خلقية .
٦ – سمات انفعالية وعاطفية .
٧ – سمات عقلية ومعرفية .
٨ – سمات تتعلق بالحياة العملية والمهنية .
٩ – سمات بدنية .

ويضم كل مجال من هذه المجالات العامة الرئيسية لسمات المؤمنين مجموعة أخرى من السمات الفرعية الكثيرة التي يتعلق كل منها بناحية خاصة معينة من السلوك . وتبين القائمة التالية مجموعات السمات الفرعية التي تتضمنها المجالات العامة الرئيسية لسمات المؤمنين التي ذكرناها سابقاً .

١ ـ سمات تتعلق بالعقيدة :

الإيمان بالله ، وبرسله ، وكتبه ، وملائكته ، واليوم الآخر ، والبعث والحساب ، والجنة والنار ، والغيب ، والقدر .

٢ ـ سمات تتعلق بالعبادات :

عبادة الله ، وأداء الفرائض من صلاة وصيام وزكاة وحج وجهاد في سبيل الله بالمال والنفس ، وتقوى الله ، وذكره دائماً ، واستغفاره ، والتوكل عليه ، وقراءة القرآن .

٣ ـ سمات تتعلق بالعلاقات الاجتماعية :

معاملة الناس بالحسنى ، الكرم والإحسان ، التعاون ، التماسك والاتحاد ، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، العفو ، الإيثار ، الإعراض عن اللغو .

٤ ـ سمات تتعلق بالعلاقات الأسرية :

الإحسان بالوالدين وبذي القربى ، حسن المعاشرة بين الأزواج ، رعاية الأسرة والإنفاق عليها .

٥ ـ سمات خلقية :

الصبر ، الحلم ، الصدق ، العدل ، الأمانة ، الوفاء بعهد الله وعهد الناس ، العفة ، التواضع ، القوة في الحق وفي سبيل الله ، عزة النفس ، قوة الإرادة ، التحكم في أهواء النفس وشهواتها .

٦ ـ سمات انفعالية وعاطفية :

حب الله ، الخوف من عذاب الله ، الأمل في رحمة الله ، حب الناس وحب الخير لهم ، كظم الغيظ والتحكم في انفعال الغضب ، عدم الاعتداء على الغير وعدم إيذائهم ، عدم حسد الغير ، عدم العجب بالنفس ، الرحمة ، لوم النفس والشعور بالندم في حالة ارتكاب ذنب ما .

٧ ـ سمات عقلية ومعرفية :

التفكير في الكون وخلق الله ، طلب المعرفة والعلم ، عدم اتباع الظن وتحري الحقيقة ، حرية الفكر والعقيدة .

٨ ـ سمات تتعلق بالحياة العملية والمهنية :

الإخلاص في العمل وإتقانه ، السعي بنشاط وجد في سبيل كسب الرزق .

٩ ـ سمات بدنية :

القوة ، الصحة ، النظافة ، الطهارة .

إننا إذا فكرنا في مجموعة هذه السمات التي وصف القرآن بها المؤمنين ، فإننا نستطيع أن نتمثل في ذهننا صورة دقيقة نابضة بالحياة للإنسان المؤمن الذي يؤمن بربه إيماناً صادقاً ، ويعبده حق عبادته ، ويتمسك في حياته الخاصة وحياته الأسرية والاجتماعية وفي عمله المهني بالمثل الإنسانية العليا وبالأخلاق الفاضلة الكريمة ، ويكون في عمله مثال الإخلاص والأمانة والاتقان . إن صورة الإنسان المؤمن الذي يصفه لنا القرآن إنما هي صورة الإنسان الكامل في هذه الحياة في حدود الإمكانات البشرية ، والتي يريد الله سبحانه وتعالى منا أن نسعى بكل جهدنا إلى تحقيقها في أنفسنا . ولقد قام النبي صلى الله عليه وسلم بتربية الرعيل الأول من المؤمنين على أساس هذه السمات فغيّر شخصياتهم تغييراً كاملاً ، وكوّن منهم رجالاً مؤمنين حقاً استطاعوا أن يغيروا وجه التاريخ بقوة شخصياتهم ، ونبل أخلاقهم ، وعلوّ هممهم ، وكريم الصفات والمثل العليا التي تعلموها من القرآن والسنة .

إن صورة الإنسان المؤمن الذي ترسمه في أذهاننا مجموعة هذه السمات التي وردت في القرآن في وصف المؤمنين إنما تكون لنا نموذجاً للإنسان المؤمن يجب أن نعمل على تحقيقه واقعياً في حياتنا ، كما يجب أن نعمل على تنشئة أطفالنا عليها حتى تصبح سمات رئيسية عميقة الجذور في شخصياتهم ، وبهذه الطريقة وحدها يمكن تكوين المجتمع الإسلامي السليم .

وليست هذه السمات مستقلة بعضها عن بعض في شخصية المؤمن ، بل إنها تتفاعل فيما بينها وتتكامل ، وتشترك جميعها في توجيه سلوك المؤمن في جميع مجالات حياته ، ولذلك يبدو سلوك المؤمن متناسقاً سواء في علاقته مع ربه ، أو في علاقته مع الناس ، أو في علاقته مع نفسه . وتلعب السمات المتعلقة بالعقيدة دوراً أساسياً ومركزياً في توجيه سلوك الإنسان في جميع مجالات حياته ، بحيث يصبح إيمان الإنسان بعقيدة التوحيد ، وإيمانه بالبعث والحساب السمات الرئيسية السائدة في شخصيته ، والتي تؤثر في جميع السمات الأخرى للشخصية وتوجهها . فالمؤمن الأمين في علاقته مع ربه يكون أيضاً أميناً في علاقته مع نفسه وفي علاقته مع الناس

الآخرين ، كما يكون أميناً أيضاً في عمله . إن المؤمن الذي يخشى ربه ويتقيه ويخلص في عبادته لربه يكون أيضاً في جميع علاقاته مع نفسه ومع الناس مراعياً مرضاة الله ، وآملاً في ثوابه ، وخائفاً من غضبه وعقابه . وهكذا يمتد إيمانه بالله تعالى وعبادته له إلى جميع مجالات سلوكه في الحياة ، فيكون حسن توجيهه لنفسه عبادة ، وحسن معاملته للناس ومحبتهم وإسداء الخير لهم عبادة ، وحسن أدائه لعمله وإخلاصه فيه عبادة .

وليس جميع المؤمنين في مستوى واحد من التقوى ، ولكنهم يختلفون فيما بينهم في درجة تقواهم . وقد ذكر القرآن ثلاث درجات أو فئات للمؤمنين : الظالمين لأنفسهم ، والمقتصدين ، والسابقين بالخيرات .

« ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ »[1]

يقول ابن كثير في تفسير هذه الآية : « (فمنهم ظالم لنفسه) وهو المفرط في فعل بعض الواجبات المرتكب لبعض المحرمات ، (ومنهم مقتصد) وهو المؤدي للواجبات التارك للمحرمات وقد يترك بعض المستحبات ويفعل بعض المكروهات ، (ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله) وهو الفاعل للواجبات والمستحبات التارك للمحرمات والمكروهات وبعض المباحات »[2] . ويقول القرطبي إن « الظالم لنفسه » هو الذي عمل الصغائر ، و« المقتصد » هو الذي يعطي الدنيا حقها والآخرة حقها ، و« السابق بالخيرات » هم السابقون من الناس كلهم[3] . وفي تفسير الجلالين إن « الظالم لنفسه » هو المقصر في العمل بالقرآن ، و « المقصد » هو الذي يعمل به أغلب

---

(١) فاطر : ٣٢ .

(٢) تفسير ابن كثير ، جـ ٣ ، ص ٥٥٤ ، ٥٥٥ .

(٣) تفسير القرطبي ، جـ ١٤ ، ص ٣٤٦ . ويقول القرطبي إن «هذه الآية نظير قوله تعالى في سورة الواقعة (وكنتم أزواجاً ثلاثة) ... (فمنهم ظالم لنفسه) أصحاب المشأمة ، (ومنهم مقتصد) أصحاب الميمنة ، (ومنهم سابق بالخيرات) السابقون من الناس كلهم .

الأوقات ، و« السابق بالخيرات » هو الذي يضم إلى العمل التعليم والإرشاد إلى العمل[1] .

الكافرون :

أشار القرآن إلى الكافرين في كثير من الآيات ، ووصفهم بسمات رئيسية يتميزون بها . ويمكن تلخيص سمات الكافرين التي وردت في القرآن فيما يلي :

١ ـ سمات تتعلق بالعقيدة :

عدم الإيمان بالتوحيد ، وبالرسل ، وباليوم الآخر ، وبالبعث والحساب .

٢ ـ سمات تتعلق بالعبادات :

يعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم .

٣ ـ سمات تتعلق بالعلاقات الاجتماعية :

الظلم ، عدوانيون في تصرفاتهم نحو المؤمنين فهم يسخرون منهم ويعتدون عليهم ، يأمرون بالمنكر ، وينهون عن المعروف .

٤ ـ سمات تتعلق بالعلاقات الأسرية :

يقطعون صلة الرحم .

٥ ـ سمات خلقية :

نقض العهد ، الفجور واتباع الأهواء والشهوات ، الغرور ، التكبر .

٦ ـ سمات انفعالية وعاطفية :

كراهيتهم للمؤمنين وحقدهم عليهم ، وحسدهم لهم على ما أنعم الله به عليهم .

---

(١) تفسير الجلالين ، ص ٣٦٧ .

٧ ـ سمات عقلية ومعرفية :

جمود التفكير والعجز عن الفهم والتعقل ، الختم والطبع على قلوبهم ، التقليد الأعمى لمعتقدات وتقاليد الآباء ، خداع النفس .

إن الصورة التي يرسمها القرآن لشخصية الكافرين هي أنهم لا يؤمنون بعقيدة التوحيد ، ولا بالرسل والكتب المنزلة ، ولا باليوم الآخر والبعث والحساب ، ولا بالجنة والنار . وهم يقلدون ما كان عليه آباؤهم من عبادة الأصنام التي لا تنفع ولا تضر ، ولا تسمع ولا تنطق ولا تعقل . وهم أشخاص قد تجمد تفكيرهم وعجزوا عن إدراك حقيقة التوحيد التي يدعو إليها الإسلام ، ولذلك وصفهم القرآن بقوله :

« خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ... »(١)

وهم يحسدون المؤمنين على ما أنعم الله به عليهم ، ويحقدون عليهم ويكرهونهم ، ويسخرون منهم ويؤذونهم ، وينفقون أموالهم في مقاومتهم ومقاومة دعوة الإسلام . وهم في كراهيتهم للمؤمنين وفي إيذائهم لهم لا يراعون صلة الرحم والقرابة ، وهم ينقضون العهد ، ويتملكهم الغرور والاستكبار . وهم أشخاص ماديون نفعيون ، يهتمون بمتع الدنيا وملذاتها ، ولذلك فهم يعيشون عيشة الفجور والفسوق والانغماس في إشباع أهوائهم وشهواتهم .

وقد رأينا أثناء كلامنا عن المؤمنين أن الإيمان بعقيدة التوحيد ، وبالبعث والحساب في الآخرة كان من السمات الرئيسية في شخصية المؤمنين التي أثرت تأثيراً كبيراً في جميع سماتهم الأخرى ، وكانت بمثابة القوة المحركة والموجهة لها في سياق معين من السلوك الخاص الذي تميز به المؤمنون . وإن فقدان الكافرين للإيمان بعقيدة التوحيد وبالبعث والحساب في الآخرة قد أفقدهم تلك القوة المنظمة والمنسقة للسمات الأخرى لشخصياتهم ، والموجهة لها نحو هدف محدد واضح في الحياة ، وهو عبادة الله وابتغاء وجهه تعالى في كل ما يقوم به الإنسان من عمل

---

(١) البقرة : ٧ .

أملاً في مغفرته ورضوانه ، وطمعاً في ثوابه في الدنيا والآخرة . إن غياب هذا الهدف الدافع والموجه للسلوك قد أفقد الكافرين توازن شخصياتهم ، فانحرفوا نحو إشباع شهواتهم وملذاتهم البدنية والدنيوية ، كما أفقدهم اتزانهم الانفعالي فكانوا يكرهون المسلمين ويحقدون عليهم ويحسدونهم ، وكانوا عدوانيين في سلوكهم معهم ، فكانوا يؤذونهم ويعتدون عليهم . وقد ساعد عدم اتزان شخصياتهم على جمود تفكيرهم وعدم استعدادهم لتقبل دعوة التوحيد وفهمها واستيعابها .

المنافقون :

المنافقون هم فئة من الناس ضعاف الشخصية ومترددون لم يستطيعوا أن يتخذوا موقفاً صريحاً من الإيمان . وقد ذكر القرآن سماتهم المميزة لهم ، وتوعدهم بأشد العذاب .

« إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا »(١)

ويمكن تلخيص أهم سماتهم التي وردت في القرآن فيما يلي :

١ ـ سمات تتعلق بالعقيدة :

إنهم لم يتخذوا موقفاً محدداً من عقيدة التوحيد ، فهم يظهرون الإيمان إذا وجدوا بين المسلمين ، ويظهرون الشرك إذا وجدوا بين المشركين .

٢ ـ سمات تتعلق بالعبادات :

يؤدون العبادات رياء وعن غير اقتناع ، وإذا قاموا للصلاة قاموا كسالى .

٣ ـ سمات تتعلق بالعلاقات الاجتماعية :

يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ، يعملون على إثارة الفتن بين صفوف المسلمين ويستخدمون في ذلك الشائعات ، يميلون إلى خداع الناس ، يحسنون

---

(١) النساء : ١٤٥ .

الكلام للتأثير على السامعين ، يكثرون من الحلف لدفع الناس إلى تصديقهم ، يحسنون الظهور بمظهر حسن في ملبسهم لجلب انتباه الناس والتأثير عليهم .

٤ ـ سمات خلقية :

ضعف الثقة بالنفس ، نقض العهد ، الرياء ، الجبن ، الكذب ، البخل ، النفعية والانتهازية ، اتباع الأهواء .

٥ ـ سمات انفعالية وعاطفية :

الخوف ، فهم يخافون كلاً من المؤمنين والمشركين ، الجبن والخوف من الموت مما يجعلهم يتخلفون عن القتال مع المسلمين ، يكرهون المسلمين ويحقدون عليهم .

٦ ـ سمات عقلية ومعرفية :

التردد والريبة وعدم القدرة على الحكم واتخاذ القرار ، عدم القدرة على التفكير السليم ولذلك وصفهم القرآن «بالطبع على قلوبهم» ، يميلون إلى الدفاع عن أنفسهم بتبرير أفعالهم .

إن هذه السمات العديدة التي يصف القرآن بها المنافقين تعطينا صورة واضحة لشخصية المنافق . والسمات الرئيسية لشخصية المنافق هي تردده بين الإيمان والكفر ، وعجزه عن اتخاذ موقف واضح صريح بالنسبة لعقيدة التوحيد . ولعل ذلك لأنه شخص جبان ، ضعيف الثقة بنفسه ، يخشى المؤمنين ، كما يخشى المشركين ، فيتخذ موقفاً متردداً بينهم لا يستطيع أن يصدر حكماً واضحاً صريحاً إلى أية فئة منهم هو في الحقيقة ينتمي . وإن اتخاذ مثل هذا الموقف يجعل المنافق يلجأ إلى الكذب ، والرياء ، والخداع ، وإخفاء مشاعره الحقيقية من كراهيته للمسلمين وحقده عليهم وحسده لهم ، مما يدفعه إلى إثارة الفتن ضدهم في الخفاء مستخدماً في ذلك سلاح الشائعات . والمنافق نفعي انتهازي إذا نال المسلمون خيراً قال إنه معهم ليشاركهم فيه ، وإذا نال المشركون خيراً قال إنه معهم لينال نصيباً منه . وهو

جبان ، إذا دُعي إلى الاشتراك في القتال تملكه الخوف ، وتخلف عن القتال منتحلاً كثيراً من الأعذار . وهو يحاول دائماً خداع الناس ، ولذلك فهو يحاول التأثير عليهم بحسن الكلام ، وبحسن المظهر . وهو يحس في قرارة نفسه بضعفه ، ولذلك فهو يحاول الدفاع عن نفسه بتبرير أفعاله .

إن الصورة التي رسمها القرآن لشخصية المنافق صورة دقيقة حية تنطبق بدقة على نمط معين من الناس يوجدون في جميع المجتمعات الإنسانية ، ونحن نستطيع أن نعرفهم بوضوح بهذه السمات التي يتميزون بها .

الحيل العقلية في القرآن

الحيل العقلية هي عبارة عن سلوك دفاعي يلجأ إليه الإنسان لوقاية نفسه من الشعور بالقلق الذي يمكن أن ينتابه إذا ما عرفت دوافعه الحقيقية الكامنة في نفسه ، والتي يحاول إخفاءها بالالتجاء إلى الحيل العقلية .

ولقد كانت شخصية المنافقين تتميز ، كما بينا ذلك من قبل ، بالشك والتردد ، وضعف الثقة بالنفس ، والخوف من انفضاح أمرهم ، والرهبة من أن يعرفهم المسلمون فيبطشون بهم . وقد دفعتهم طبيعة شخصياتهم هذه إلى كثرة الالتجاء إلى الحيل العقلية كسلوك دفاعي . وقد أشار القرآن إلى ثلاثة أنواع من الحيل العقلية كان المنافقون يقومون بها وهي : الإسقاط ، والتبرير ، وتكوين ردّ الفعل .

الإسقاط :

الإسقاط حيلة عقلية يقوم فيها الفرد بإسقاط حالته النفسية ودوافعه وعيوبه وأخطائه على الغير فيدركها فيهم بدلاً من أن يدركها في نفسه . فمثلاً ، إن الشخص الذي يضمر في نفسه العداء لأحد أصدقائه ، قد يسقط شعوره العدائي على صديقه فيدرك أن صديقه يعامله بعداء . وكان المنافقون يضمرون العداء للمسلمين ، ويخفون حقدهم عليهم وكراهيتهم لهم . وكانوا يسقطون شعورهم العدائي على المسلمين ،

فيظنون أن المسلمين يريدون البطش بهم . وقد صور القرآن ذلك أصدق تصوير في وصف المنافقين الذين يحسبون أن كل صيحة يسمعونها تصدر عن المسلمين موجهة ضدهم .

« وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ »(١)

إن كل صيحة يسمعونها يظنون أنها عليهم ، ويظنون أن المسلمين يريدون أن يبطشوا بهم ، وذلك نتيجة لما يضمرونه من شعور عدائي نحو المسلمين ، فيقومون بإسقاط هذا الشعور العدائي عليهم . ويلاحظ أنه بعد عبارة « يحسبون كل صيحة عليهم » تقول الآية مباشرة : « هم العدو فاحذرهم » ، وهذا يوضح أنهم هم الذين يضمرون العداء للمسلمين في الحقيقة ، وأن إدراكهم لما يسمعون من صيحات كأنها ضدهم ليس إلاّ وهْماً نتيجة عملية الإسقاط .

التبرير :

التبرير حيلة عقلية دفاعية يحاول بها الإنسان تبرير دوافعه وأفعاله غير المقبولة بأن يعطيها تفسيراً يكون مقبولاً . وقد كان المنافقون يلجأون إلى التبرير في كثير من الأحيان لتفسير سلوكهم تفسيراً يكون مقبولاً . فإذا أفسدوا في الأرض قالوا إنما هم يقصدون الإصلاح ، وهم بذلك إنما يقومون بتبرير أفعالهم تبريرات تبدو مقبولة ومعقولة . وقد وصف القرآن التبرير الذي يقوم به المنافقون بقوله :

« وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۝ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ »(٢)

---

(١) المنافقون : ٤ .

(٢) البقرة : ١١ ، ١٢ .

« وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ۝ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ۝ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا »[1]

والحيل العقلية سلوك يقوم به الإنسان بطريقة لاشعورية . فحينما يسقط الإنسان مثلاً شعوره العدائي على آخر فيعتقد أن هذا الشخص الآخر هو الذي يضمر له العداء ، فإنه يقوم بذلك بدون وعي منه بأنه يقوم بعملية إسقاط . وكذلك حينما يقوم الإنسان بالتبرير فهو لا يكون واعياً بأنه يقوم بعملية تبرير ، بل إنه يعتقد فعلاً أن ما يقوم به من أعمال سيئة إنما هي أعمال حسنة ومفيدة ، أو أنه يقصد منها الخير والإصلاح . ويشير القرآن إلى هذه الناحية اللاشعورية من الحيل العقلية بقوله في في وصف سلوك المنافقين الذين يقومون بعملية التبرير . «ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون» . فالقول : «ولكن لا يشعرون» إنما يشير إلى عدم وعيهم بأن ما يفعلونه إنما هو إفساد وليس إصلاحاً .

تكوين ردّ الفعل :

وتكوين رد الفعل حيلة عقلية دفاعية يتخذ فيها الفرد سلوكاً يكون مضاداً لسلوك آخر يريد إخفاءه . فالفرد ، مثلاً ، قد يبدي كثيراً من المجاملة والأدب والاهتمام في معاملة شخص معين كوسيلة دفاعية يخفي بها كرهه له وشعوره العدائي نحوه . وقد كان المنافقون يلجأون إلى هذه الحيلة العقلية الدفاعية لإخفاء حقيقة شعورهم بالكراهية والعداء للمسلمين . فكانوا يحسنون الكلام معهم ، ويظهرون حبهم وإعجابهم بهم وتقديرهم لهم بقصد إخفاء ما تضمره نفوسهم من كراهية وعداء .

« وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي

---

(١) النساء : ٦١ ـ ٦٣ .

قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ۝ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ »[1]

« وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ .. »[2]

وقد سبق أن ذكرت أن الحيل العقلية تحدث بطريقة لا شعورية . فالإنسان الذى يلجأ إلى التبرير ، أو إلى تكوين رد الفعل ، كحيلتين عقليتين ، لا يكون ، فى الحقيقة ، مدركاً أنه يحاول إخفاء حقيقة دوافعه ومشاعره . غير أنه من الممكن أيضاً أن يظهر بعض الناس دوافع ومشاعر مضادة لحقيقة دوافعهم ومشاعرهم ، ويكونون مدركين أنهم يقومون بإخفاء حقيقة دوافعهم ومشاعرهم غير المقبولة . إن هؤلاء الناس ، فى هذه الحالة ، إنما يقومون بعملية خداع وكذب . وقد كان المنافقون يلجأون إلى الحيل العقلية ، كما كانوا يلجأون أيضاً إلى الخداع والكذب .

« وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ »[3]

وهكذا نرى أن القرآن ، في وصفه لسلوك المنافقين في عصر النبي صلى الله عليه وسلم ، قد أشار إلى بعض الحيل العقلية التي كان يستخدمها المنافقون ، وذلك منذ أربعة عشر قرناً من الزمان قبل أن يكتشف سيجمند فرويد هذه الحيل العقلية في سلوك مرضاه الذين كان يقوم بعلاجهم .

---

(١) البقرة : ٢٠٤ ، ٢٠٥ . نزلت هذه الآية « في الأخنس بن شريق ، كان منافقاً حلو الكلام للنبي صلى الله عليه وسلم يحلف أنه مؤمن به ومحب له فيدني مجلسه ، فأكذبه الله في ذلك .. » . تفسير الجلالين ، ص ٢٨ .

(٢) المنافقون : ٤ .

(٣) البقرة : ٨ ، ٩ .

الفروق الفردية في القرآن

توجد فروق كثيرة بين الناس في استعداداتهم وقدراتهم البدنية والنفسية والعقلية . وترجع هذه الفروق إلى تفاعل كل من العوامل الوراثية والبيئية . وقد أشار القرآن إلى الفروق بين الناس في كثير من المواضع .

« وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ .. »(١)

« أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا .. »(٢)

« وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ »(٣)

« ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ .. »(٤)

« وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ .. »(٥)

في هذه الآيات إشارة واضحة إلى وجود الفروق الفردية بين الناس ، كما أن هذه الآيات تتضمن أن هذه الفروق ترجع إلى كل من العوامل الوراثية والبيئية . فقوله تعالى : « ورفع بعضكم فوق بعض درجات » إنما يشمل كل أنواع الفروق بين الناس سواء كانت وراثية أم مكتسبة ، وسواء كانت بدنية أو نفسية أو عقلية ،

---

(١) الأنعام : ١٦٥ .
(٢) الزخرف : ٣٢ .
(٣) الروم : ٢٢ .
(٤) الإسراء : ٢١ .
(٥) فاطر : ٢٨ .

أو في الثروة والممتلكات ، أو النفوذ . وقوله تعالى : «ليتخذ بعضهم بعضاً سُخْرِياً» إنما يشير إلى اختلاف الناس في الغنى ، وفي العلم والمهنة ، بحيث يعمل الفقير للغني بالأجر ، كما يعمل بعض أصحاب المهن والحرف في خدمة الناس الآخرين بالأجر ، وبذلك يتم التعاون وتوزيع العمل بين أفراد المجتمع مما يكفل سد جميع حاجاتهم ، ويهيئ لهم جميع الخدمات اللازمة لهم في معيشتهم . وقوله تعالى إن من آياته اختلاف ألسنة الناس وألوانهم إنما يشير إلى أثر كل من العوامل الوراثية والبيئية في الفروق الفردية . فمن الواضح أن اختلاف الألوان إنما يرجع إلى العوامل الوراثية ، وأن اختلاف الألسنة واللغات واللهجات بين الناس إنما يرجع إلى العوامل البيئية والاجتماعية والثقافية .

وتوجد فروق بين الناس في العلم والحكمة ، ويتضمن ذلك وجود فروق بينهم في القدرات العقلية والذكاء . يفهم ذلك من مضمون الآيات التي ذكرناها سابقاً ، كما يفهم ذلك صراحة من قوله تعالى :

«.. نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ »[1]

قال ابن كثير في تفسير ذلك : «قال الحسن البصري : ليس عالم إلا فوقه عالم حتى ينتهي إلى الله عز وجل . عن سعيد بن جبير قال : كنا عند ابن عباس فحدّث بحديث عجيب ، فتعجب رجل فقال : الحمد لله ، فوق كل ذي علم عليم ، فقال ابن عباس : بئس ما قلت ، الله العليم فوق كل عالم ، يكون هذا أعلم من هذا ، وهذا أعلم من هذا ، والله فوق كل عالم»[2] .

وبما أن الناس مختلفون في استعداداتهم وقدراتهم ، وفي ظروفهم الاجتماعية والثقافية وخبراتهم الشخصية فإننا ، لا شك ، نتوقع وجود اختلافات كثيرة في سلوكهم .

---

(١) يوسف : ٧٦ .

(٢) مختصر تفسير ابن كثير ، جـ ٢ ، ص ٢٥٧ ، ٢٥٨ .

« قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ .. »[1]

واختلاف الناس في الاستعدادات والقدرات البدنية والعقلية يؤدي بطبيعة الحال إلى اختلاف قدراتهم على العمل والكسب ، وتحصيل العلم ، وتحرى الحق والعدل ، وتختلف تبعاً لذلك واجباتهم ومسؤولياتهم .

« لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ .. »[2]

« وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ »[3]

« .. لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا .. »[4]

ومن الواضح أن إشارة القرآن إلى وجود الفروق الفردية ، وإلى أن الفرد لا يكلف إلا ما في وسعه وطاقته إنما هو الفكرة الأساسية فيما وصل إليه علم النفس الحديث من الاهتمام بقياس الفروق بين الأفراد في الاستعدادات والقدرات لتنظيم عملية التعليم بحيث يوجه كل فرد إلى نوع التعليم المناسب لاستعداداته وقدراته ، وهذا هو الهدف من عملية التوجيه التربوي في التربية الحديثة . ويستعين علماء النفس المحدثون أيضاً بقياس الفروق الفردية بهدف تحسين عملية التوجيه المهني والاختيار المهني بحيث يمكن وضع كل فرد في العمل المناسب لاستعداداته وقدراته .

ونجد في الحديث النبوي أيضاً إشارة إلى تأثير العوامل الوراثية وذلك في قوله عليه الصلاة والسلام : « تزوجوا في الحُجْز [5] الصالح فإن العرق دساس » ، وفي قوله أيضاً عليه الصلاة والسلام : « تخيروا لنطفكم فإن النساء يلدن أشباه أخواتهن

---

(١) الإسراء : ٨٤ . أي كل يعمل على طبيعته أو طريقته . انظر تفسير ابن كثير ، وتفسير الجلالين .

(٢) البقرة : ٢٨٦ .

(٣) المؤمنون : ٦٢ .

(٤) الطلاق : ٧ .

(٥) رواه ابن عدى عن أنس بن مالك ، الجامع الصغير جـ ١ (انظر إبراهيم دسوقى مرعى : الطفولة فى الإسلام . القاهرة : دار الاعتصام ، ١٩٧٩ ، ص ٢٠). الحُجْز يعنى المنبت الصالح .

وأخواتهن »[1] . ونجد في الحديث النبوي أيضاً إشارة إلى تأثير العوامل البيئية وذلك في قوله عليه الصلاة والسلام : « ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه ... الحديث »[2]

نمو الإنسان في القرآن

يعنى علم النفس بدراسة المراحل المختلفة التي تمر بها عملية نمو الطفل ، والخصائص العامة التي تميز هذه المراحل ، والعوامل المختلفة التي تؤثر فيها ، مما يجعلنا أكثر فهماً لشخصية الطفل ، وأكثر قدرة على توجيهه وتربيته .

ولايعنى ، علم النفس بدراسة مراحل نمو الطفل منذ ساعة ميلاده فقط ، وإنما يعنى أيضاً بدراسة مراحل نموه قبل الميلاد وهو لايزال جنيناً في بطن أمه ، والعوامل المختلفة الوراثية والبيئية التي يمكن أن تؤثر في تكوين الجنين ونموه . وقد استعان علم النفس كثيراً في دراسته للنمو في مرحلة قبل الميلاد بنتائج البحوث في علم الأجنة .

النمو قبل الميلاد :

أشار القرآن الكريم في أسلوبه المعجز في إيجازه ودلالته إلى مراحل نمو الجنين منذ بداية الحمل حتى وقت الميلاد وذلك في الآيات التالية :

« وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ »[3]

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن

---

(١) إبراهيم دسوقى مرعى : المرجع السابق ، ص ٢٠ .

(٢) رواه الشيخان وأبو داود والترمذى (ناصف ، جـ ٥ ، ص ١٩٦) .

(٣) المؤمنون : ١٢ ـ ١٤ .

نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ[1] إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا..»[2]

«.. يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ..»[3]

يشير القرآن الكريم في هذه الآيات إلى مراحل نمو الجنين في الرحم منذ بداية الحمل حينما تقوم إحدى الخلايا المنوية للأب بتخصيب بويضة الأم الناضجة مكوّنة بذلك ما يسمى بالبذرة أو اللاقحة ، وهى ما عبر عنه القرآن « بالنطفة » ، و « بالنطفة الأمشاج » .

« إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ ... »[4]

ثم تأخذ النطفة الأمشاج في الانقسام ، فيتضاعف عدد خلاياها باستمرار ، دون أن يزداد حجمها ازدياداً محسوساً عن حجم البويضة الملقحة خلال الأسبوعين الأولين . وتتم عملية الانقسام هذه والنطفة الأمشاج تتحرك في قناة الرحم ، التي تعرف بقناة فالوب ، متجهة إلى الرحم . وإذا وصلت إليه كانت كتلة من الخلايا التي تشبه في هيئتها ثمرة التوت ، ولذلك أطلق عليها إسم التوتة Morula . وحينما تصل النطفة الأمشاج إلى الرحم تنغرز في جداره وتتعلق به[5] . وعندئذ تبدأ مرحلة « العلقة »[6] .

---

(١) « ونقر فى الأرحام ما نشاء » ، يعنى نقر فى الأرحام ما نشاء من الأجنة فيكمل نموها فتولد حية ، ومنها ما لا يكتمل نموه فيسقط .

(٢) الحج ٥ .

(٣) الزمر : ٦ .

(٤) الإنسان : ٢ . النطفة الأمشاج هى النطفة التى تتكون من منىّ الذكر وبويضة الأنثى .

(٥) اعتمدنا فى وصف مراحل نمو الجنين على : فؤاد البهى السيد : الأسس النفسية للنمو ، ط ٤ . القاهرة : دار الفكر العربى ، ١٩٧٥ ، ص ٩٠ ـ ١٠٠ ؛ وحامد عبد العزيز الفقى : دراسات فى سيكولوجية النمو. الكويت ، ١٩٧٧ ، ص ٤١ ـ ٦٨ ؛ وعبد الحميد دياب وأحمد قرقوز : مع الطب فى القرآن الكريم، ط ٢ . دمشق علوم القرآن ، ١٩٨٢ ، ص ٨٠ ـ ٨٩ ؛ ومحمد على البار: خلق الإنسان بين الطب والقرآن ، ط ٦ . جدة : الدار السعودية للنشر والتوزيع ، ١٩٨٦ ، ص ١٩١ ـ ٢٩٦ .

(٦) يذهب المفسرون القدماء إلى أن العلقة هى الدم الجامد . غير أن البحوث الحديثة فى الأجنة تبين أنه لا توجد =

وتستمد العلقة غذاءها من دم الأم مباشرة عن طريق الحبل السُرى ، ثم تبدأ الأغشية الجنينية فى التكوين ، وعندئذ تبدأ مرحلة « المضغة » فى الأسبوع الثالث . وحتى نهاية الأسبوع الرابع لا يكون هناك أى تمايز لأى عضو فى الجنين ، ولذلك يمكن أن تسمى هذه المرحلة « بالنطفة غير المخلّقة » . وابتداءً من الأسبوع الخامس تبدأ عملية التمايز فى أعضاء وأجهزة الجسم . وتنتهى عملية التخلّق فى نهاية الشهر الثالث . ويمكن أن تُسمى هذه المرحلة « بالمضغة المخلّقة » . وهذا ما أشار إليه القرآن فى قوله تعالى : « ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة [1] .

وتمتد فترة المضغة من نهاية الأسبوع الثانى إلى نهاية الشهر الثانى حيث تبدأ المرحلة التى يطلق عليها علماء الأجنة مرحلة الجنين[2] . تمييزاً لها عن المرحلة السابقة وهى مرحلة المضغة [3] ومرحلة الجنين مرحلة نمو سريع ، يزداد فيه حجم الجنين بسرعة ، وتتغير نسب أعضائه حتى يصل الجنين إلى تمام نموه فى نهاية الحمل . وتتكون العظام والعضلات فى الأسبوعين الخامس والسادس ، ثم تُكسى العظام بالعضلات فى الأسبوعين السادس والسابع ، وهذا ما أشار إليه القرآن فى قوله تعالى : « ... فكسونا العظام لحما ... » .

= فى البويضة الملقحة حديثاً خلايا دموية . وعندما تنتقل البويضة الملقحة فى المرحلة التى تسمى العلقة إلى الرحم فى نهاية الأسبوع الثانى وتلتصق بجداره ، تبدأ الأغشية الجنينية فى التكوين ، ويمتد الحبل السرى الذى يصل البويضة بالأم ، وتبتدئ عملية التغذية من دم الأم ، يبدأ حينئذ فقط يدخل الدم فى العلقة حول اليوم الثامن عشر تقريباً . انظر : فؤاد البهى السيد : مرجع سابق ، ص ٩١ ؛ ومحمد إسماعيل إبراهيم : مرجع سابق ، ص ١٠٧ .

(١) فى تفسير القرطبى : « قال الفراء : « مخلقة » تامة الخلق ، « وغير مخلقة » السقط . وقال ابن الاعرابى : « مخلقة قد بدأ خلقها ، « وغير مخلقة » لم تصور بعد . (وقال) ابن زيد : « المخلقة التي خلق الله فيها الرأس واليدين والرجلين ، « وغير مخلقة » التي لم يخلق فيها شيء ... (وقال) ابن عباس : « المخلقة » ما كان حياً ، « وغير المخلقة » السقط ... . تفسير القرطبى ، جـ ١١ ، ص ٦ ـ ١٣ . والمضغة هى قطعة من اللحم صغيرة قدر ما يمضغ .

(٢) Fetus stage

(٣) Embryonic stage

وتبدأ الحركة فى الجنين فى نهاية الشهر الثالث وبداية الشهر الرابع حيث يتم اتصال الجهاز العصبى بالأجهزة والعضلات . وتبدأ نبضات القلب فى بداية الشهر الرابع ، ويتم تكامل الشكل الخارجى للجنين . وصدق الله تعالى إذ يقول فى وصف هذه المرحلة : « ... ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين » .

ويتفق وقت حدوث الحركة فى الجنين ونبض قلبه مع الوقت الذى يرسل الله تعالى فيه المَلَك لينفخ فيه الروح ، كما جاء فى الحديث الشريف . فعن عبد الله بن مسعود أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إن أحدكم يُجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوماً نطفة ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يُرسلُ المَلَكُ فينفخ فيه الروح ، ويؤمر بأربع كلمات : رزقه ، وأجله ، وعمله ، وشقى أو سعيد ... الحديث »[1] .

وتحدث حركة الجنين ونبضات قلبه ، كما ذكرنا سابقاً ، فى بداية الشهر الرابع ، وتستطيع الأم أن تحس بها بوضوح بعد الشهر الرابع . ولذلك ، فإن الأطباء يتخذونها علامتين هامتين لتشخيص الحمل . وقد أشار القرآن إلى هذه الحقيقة العلمية بقوله تعالى :

« وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا »[2]

يقول مؤلفا كتاب « مع الطب فى القرآن الكريم » : « إن وجه الإعجاز فى هذه الآية الكريمة ظاهرة بلاشك ، وهى تقرر ما يسمى بعدّة المرأة التى توفى زوجها ، حيث حددت بالضبط المدة التى يصبح عندها أو بعدها تشخيص الحمل يقينياً »[3] .

---

(١) رواه البخارى فى بدء الخلق ، ومسلم فى أول كتاب القدر (النووى ، جـ ١ ، ص ٣٦٥ ، الحديث رقم ٣٩٧/١) .

(٢) البقرة : ٢٣٤ .

(٣) عبد الحميد دياب وأحمد قرقوز : مع الطب فى القرآن الكريم ، مرجع سابق ، ص ٨٥ .

ويحاط الجنين وهو فى الرحم بغشاء ، يسمى « غشاء السلى أو الأمنيون »[١] ، مملوء بسائل ملحى يقوم بعدة وظائف هامة للجنين من بينها وقايته من الهزات العنيفة ومن تأثيرات الجاذبية[٢] . وقد أشار القرآن إلى ذلك فى الآيات التى ذكرناها سابقاً من سورة « المؤمنون » بقوله : « ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين » ، وفى قوله أيضاً فى سورة المرسلات :

« أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ۝ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ »[٣]

ويذهب المفسرون الأقدمون إلى أن الظلمات الثلاث التى جاء ذكرها فى القرآن فى سورة الزمر التى ذكرناها سابقاً ، إنما تشير إلى ظلمة البطن ، وظلمة الرحم ، وظلمة المشيمة[٤] .

وقد أمدنا علم الأجنة حديثاً بتفسير حديث لهذه الظلمات الثلاث . فقد تبين أن الجنين تحيط به ثلاثة أغشية هى :

١ ـ غشاء السلى أو الأمنيون الذى ذكرناه سابقاً .
٢ ـ غشاء الكوريون[٥] وهو الغشاء الثانى الذى يحيط بالجنين ، وهو متوسط بين غشاء الأمنيون من الداخل ، والغشاء الساقط من الخارج .
٣ ـ الغشاء الساقط[٦] وهو ثالث الأغشية التى تحيط بالجنين ، وهو عبارة عن مخاطية الرحم السطحية . وسُمّى بالساقط لأنه يسقط مع الجنين عند الولادة .

---

(١) Amnion

(٢) حامد عبد العزيز الفقى : مرجع سابق ، ص ٥١ .

(٣) المرسلات : ٢١ ـ ٢٣ .

(٤) تفسير القرطبى : جـ ١٥ ، ص ٢٣٥ ، ٢٣٦ .

(٥) Chorion .

(٦) Decidua .

النمو بعد الميلاد :

يولد الطفل ضعيفاً في حاجة إلى من يرعاه ويعنى به حتى ينمو ويكبر . ويستمر نمو الوليد بسرعة كبيرة في الأيام الأولى من حياته ، ولكن تأخذ سرعة النمو تبطؤ تدريجياً مع تقدم العمر ، وتبدو الحياة هادئة مستقرة قبل فترة المراهقة . وما أن تبدأ مرحلة المراهقة حتى تتوالى على الطفل تغيرات قوية وسريعة عضوية وتشريحية ونفسية . ثم تهدأ سرعة هذه التغيرات في نهاية مرحلة المراهقة وبداية مرحلة الرشد التي تكتمل فيها عملية النمو ، وتعود الحياة مرة أخرى إلى الهدوء والاستقرار . ومع أن الراشد يكون قد بلغ تمام النضج في نموه الجسمي ، ونمو قدراته العقلية إلا أنه يستمر في تعلم خبرات جديدة ، وفي اكتساب المعرفة والخبرة والحكمة حتى يصل إلى مرحلة الشيخوخة ، فتأخذ قوته الجسمية في الاضمحلال ، وتبدأ قدراته العقلية في الضعف .

وقد أشار القرآن إلى مراحل النمو التي يمر بها الإنسان بعد الميلاد من الطفولة إلى الشيخوخة بقوله :

« هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوٓاْ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ »(١)

« ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ »(٢)

ويظهر على بعض الشيوخ في حوالى سن السبعين نوع من الاضطراب السلوكي والعقلي يتميز بضعف الذاكرة ، وعدم القدرة على التركيز الذهني ، والخلط بين الماضي والحاضر ، والحقيقة والخيال ، والعجز عن إصدار الأحكام العقلية ، كما يفقدون السيطرة على انفعالاتهم واندفاعاتهم فيبدو سلوكهم في الأغلب طفلياً .

---

(١) غافر : ٦٧ .

(٢) الروم : ٥٤ .

ويطلق على هذه الحالة من الاضطراب السلوكي والعقلي «ذهان الشيخوخة» . قد بينت الدراسات الحديثة أنه يحدث عادة في هذا السن المتأخر من عمر الإنسان نوع من التدهور في أنسجة الدماغ . ومما يساعد على سرعة حدوث هذا التدهور تصلب الشرايين الذي يسبب قلة الأكسوجين الذي يصل إلى الأنسجة العصبية بالدماغ مما يقلل من قدرة الدماغ على أداء وظائفه .

وتوجد فروق فردية بين الناس في مدى تأثرهم بضعف الشيخوخة ، وظهور أعراض ذهان الشيخوخة عليهم . فمن الشيوخ من يظل محتفظاً بقدر كبير من قدرته العقلية ، ومنهم من تضعف قدرته العقلية كثيراً ، وتظهر عليه أعراض ذهان الشيخوخة . «ويبدو أن بعض العوامل الوراثية ، والعوامل المتعلقة بحالة الأوعية الدموية ، وحالة الغدد الصماء مما يساهم في حدوث ذهان الشيخوخة . وقد بينت بعض الدراسات أن بعض المسنين يعانون من تلف خطير في الدماغ دون أن يفقدوا قدرتهم على التفكير المنطقي السليم مما دفع بعض علماء النفس إلى القول بأن الشيخوخة ، فيما يبدو ، تعتمد على قدرة الفرد على تقبل فقدان كفايته العقلية ، وعلى مهارته في التكيف لمواقف الضغط . فالشخص الذي يتقبل أعراض الشيخوخة يكون أحسن قدرة على التكيف للتغيرات التي تحدث في الشيخوخة وعلى مواجهتها . والشخص الذي يثيره ضعف كفايته العقلية وعدم قدرته على التذكر يصبح شخصاً مبلبلاً وغير متزن»[1] .

وقد أشار القرآن إلى حالة الاضطراب السلوكي والعقلي الذي ينتاب بعض الأفراد في مرحلة الشيخوخة في الآية التي سبق أن ذكرناها من سورة الحج :

«.. ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ

(١) محمد عثمان نجاتي : علم النفس في حياتنا اليومية ، مرجع سابق ، ص ٥١٧ .

إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ..»[1]

فبعد أن أشار القرآن في هذه الآية إلى مراحل النمو قبل الميلاد من نطفة إلى علقة إلى مضغة قام بذكر مراحل النمو بعد الميلاد من الطفولة إلى الرشد حيث يكتمل النمو ويبلغ الإنسان أشده وكمال نضجه ، ثم إلى الشيخوخة حيث يبدأ الإنسان في الضعف جسمياً وعقلياً . وأشار القرآن أيضاً في هذه الآية إلى ما ينتاب بعض الناس في مرحلة الشيخوخة من اضمحلال قدراتهم العقلية ، وما يظهر عليهم من أعراض ذهان الشيخوخة .

وقد أشار القرآن أيضاً في مواضع أخرى إلى هذه الحالة من الاضطراب السلوكي والعقلي التي تنتاب بعض الشيوخ .

« وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ »[2]

« لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ »[3]

« وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ »[4]

---

(١) الحج : ٥ . « أرذل العمر » هو الهرم والشيخوخة وما يصاحبها من نقص القوة الجسمية والعقلية . و« لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً » أي اضمحلال القدرة العقلية والرجوع إلى حالة الطفولة ؛ فلا يعلم ما كان يعلم من قبل من الأمور . انظر تفسير القرطبي ، جـ ٩ ، ص ١٤٠ ، ١٤١ ، وجـ ١١ ، ص ٦ – ١٣ .

(٢) النحل : ٧٠ .

(٣) التين : ٤ – ٦ . في تفسير الجلالين (ص ٥١٤) : « (ثم رددناه) في بعض أفراده (أسفل سافلين) كناية عن الهرم والضعف فينقص عمل المؤمنين عن زمن الشباب ويكون له أجره لقوله تعالى (إلا) أي لكن (الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون) مقطوع . وفي الحديث : (إذا بلغ المؤمن من الكبر ما يعجزه عن العمل كتب له ما كان يعمل) . » .

(٤) يس : ٦٨ .

النمو الحسي للوليد :

بينت الدراسات الفسيولوجية الحديثة أن حساسية شبكية العين للضوء تكون ضعيفة عند الميلاد ، وهي تنمو حتى تصل إلى كمال نضجها الوظيفي تقريباً في نهاية العام الأول من عمر الطفل . ولا يستجيب الوليد عقب ولادته مباشرة للأضواء الشديدة ، ولكنه يبدأ منذ اليوم الثاني يتعلم تدريجياً أن يستجيب للأضواء المختلفة بغمض العينين أو بإلقاء رأسه إلى الوراء في حركة آلية لتجنب الأضواء الشديدة . وبسبب نقص التكوين الشبكي لدى الوليد فإن صور الأشياء لا تبدو له واضحة حتى الشهر السادس من عمره حينما يتم نمو التكوين الشبكي في عينيه[1] . وتتحرك عينا الوليد في أول الأمر في تتبعهما للأشياء الساكنة أو المتحركة حركات غير متناسقة . فقد تنظر عينه اليمنى إلى شيء ما ، بينما تنظر عينه اليسرى إلى شيء آخر مما يبدو للناظرين أن بعيني الوليد حولاً . ثم تزداد بالتدريج قدرة الطفل على تحريك عينيه حركات متناسقة ، فتتحرك عيناه معاً في اتجاه واحد عند تحديقه في شيء ما[2] .

وبينما لا يستطيع الوليد أن يرى الأشياء بوضوح إلا في النصف الثاني من العام الأول من عمره ، فإننا نلاحظ أنه يستجيب للأصوات الحادة العالية ، وإن كان لا يستجيب للأصوات الخافتة الضعيفة . ويمر أيضاً الإدراك السمعي للوليد بمراحل نمو ، فيأخذ بالتدريج يميز بين الدرجات المختلفة للأصوات المتباينة ، ثم تأخذ قدرته على التمييز السمعي تتطور تطوراً سريعاً ابتداء من السنة الثالثة بعد الميلاد حتى تصل إلى كمال نضجها بعد سن الثالثة عشر بقليل[3] .

وعلى ضوء هذه المعلومات التي توصلنا إليها من الدراسات الفسيولوجية الحديثة التي بينت أن الوليد لا يستطيع أن يرى الأشياء بوضوح في المرحلة المبكرة من عمره ، بينما يستطيع سماع الأصوات الشديدة ، نستطيع أن نفهم الحكمة في مجيء كلمة « السمع » قبل كلمة « الأبصار » في قوله تعالى :

---

(١) فؤاد البهي السيد : مرجع سابق ، ص ١٢٢ .

(٢) المرجع السابق : ص ١٢١ – ١٢٣ .

(٣) المرجع السابق : ص ١٢٤ .

« وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ »(١)

ولعلنا نستطيع أيضاً أن نفهم من نتائج الدراسات الفسيولوجية التي أشرنا إليها سابقاً ، والمتعلقة بعدم تناسق حركتي العينين عند الوليد عند النظر إلى الأشياء ، تفسيراً لإشارة القرآن إلى حاسة السمع بصيغة المفرد ، بينما أشار إلى حاسة البصر بصيغة الجمع . وفضلاً عن ذلك ، فإن ذكر «الأبصار» في صيغة الجمع ، بينما يذكر «السمع» في صيغة المفرد إنما يشير إلى عدة حقائق أخرى قد سبق أن أشرنا إليها أثناء كلامنا عن «الحواس في القرآن» في الفصل الخاص «بالإدراك الحسي في القرآن» .

ويلاحظ أيضاً أن ذكر الأفئدة في الآية السابقة قد جاء بعد ذكر حاستي السمع والبصر ، ولعل ذلك لأن قدرة الطفل على الإدراك العقلي والتمييز تبدأ في الظهور في مرحلة تالية من النمو بعد أن تكون حاستا السمع والبصر وكذلك الحواس الأخرى قد بدأت في النمو من قبل .

---

(١) النحل : ٧٨ .